

مقدمة

يقول فريزر في مقدمة الطبعة المختصرة لكتاب « الفولكلور في العهد القديم » التي قمنا بترجمتها : « وقد حاولت في هذا الكتاب أن أسير على هدى الدراسات الفولكلورية متعقباً بعض معتقدات الاسرائيليين القدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعلمية في المراحل الأكثر قدماً وفجاجة ، تلك التي تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التي تعيش حتى اليوم من معتقدات وعادات • وإذا كنت قد حققت أى قدر من النجاح في هذه المحاولة ، فانه سيكون من الممكن النظر الى تاريخ بنى اسرائيل في ضوء أكثر صدقا وان يكن أقل رومانسية ، بوصفهم شعبا لا يميزه الوحي الالهى عن غيره من الشعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية ، وذلك عن طريق عملية انتخاب طبيعي بطيء » • كما يقول في خاتمة هذه المقدمة : « ولقد دفعنى الهدف من دراستى هذه الى أن أنعم فى النظر بصغة أساسية فى الجانب الأدنى من حياة العبريين القدماء كما تتمثل فى العهد القديم ، وأن أتتبع آثار الهمجية والخرافة ، تلك الآثار التى تنتشر على صفحاته .. »

ولقد نجح فريزر الى حد كبير فى تحقيق مأربه ، فكان يضع يده على طقوس وعادات قديمة ترد بين ثنايا العهد القديم ، من الممكن أن يمر بها القارىء من الكرام • دون أن يفكر فى مغزاها أو أصلها • ومثال ذلك ما ورد فى سفر التكوين^(١) بصدد مقتل هابيل بيد أخيه قابيل : « فقال قابيل للرب ذنبى أعظم من أن يحتمل ، انك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفى وأكون تائها وهاربا فى الأرض ،

(١) سفر التكوين ٤ : ١٥ ، ١٦ .

فيكون كل من وجدنى يقتلنى • فقال له الرب ، لذلك كل من قتل قايين
فسبعة أضعاف ينتقم منه • وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله
كل من وجده » • وهنا يقف فريزر عند عبارة « وجعل الرب لقايين
علامة لكى لا يقتله كل من وجده » ويتساءل عن كنه هذه العلامة وعن
سبب تعليم الرب لقاييل بها ، مستخدما فى ذلك المنهج المقارن
الذى تمكن بواسطته من استجلاء مغزى هذا الفعل ، أعنى مقارنته
بعادات مماثلة كانت أو لا تزال تعيش بين الشعوب البدائية التى
تعيش مرحلة متخلفة من التطور الحضارى • ومثال ذلك أيضا ما ورد
فى قصة آدم فى سفر التكوين ^(١) : « وقال الرب الاله هوذا الانسان
قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر • والآن لعله يمد يده ويأخذ
من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد • فأخرجه الرب الاله
من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها • فطرد الانسان وأقام
شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة
الحياة » • وهنا يتساءل المؤلف عما اذا كان الرب الرحيم الذى
أسكن آدم وحواء وأنعم عليهما من كل الخيرات ، كان يخشى حقا أن
يأكل الأبقوان الأولان من ثمار شجرة الخلد فيصبا خالدين مثله •
وقد دفعه هذا التساؤل لأن يتعرض لفكرة الخلود عند الشعوب البدائية
وعلاقتها بالحياة التى أوقعت آدم وحواء فى الخطيئة كما هو مذكور
فى التوراة • وقد استخلص الكاتب من ذلك كيف أن كاتب السفر قد
خلط بين قصة الخلق الأصلية وبين المعتقدات والتصورات البدائية ،
وكان نتيجة هذا الخلط أن نسبت قصة التكوين فى التوراة الى الرب
صفات لا تليق بوحدايته وألوهيته ••

وبهذا استطاع فريزر من خلال القراءة المتفحصة للتوراة ، ومن
خلال تخصصه العميق فى علم الأنثروبولوجيا ، أن يحصى ما فى التوراة

(١) سفر التكوين ٣ : ٢٢ الى ٢٤ •

من تقاليد وعادات وتصورات بدائية ، وأن يقوم بتحليلها وفحصها واستبيان كنهها عن طريق المنهج الأنثروبولوجي المقارن •

وربما حق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن سبب احتفاظ الدين اليهودي بهذه الكثرة اللافتة من المعتقدات والطقوس القديمة • فالواقع أن الدين اليهودي هو أول الأديان السماوية • وإذا كان الدين المسيحي قد جاء من بعده ثم الدين الاسلامي ، فمن المفروض أن الدين الجديد لا يأتي لتغيير جوهر دين سماوي سبقه ، اللهم الا اذا كان الناس أنفسهم قد غيروا هذا الجوهر ، وانما يأتي الدين الجديد لتأكيد الدين الذي سبقه من ناحية ، ولسن تشريعات جديدة أو توضيح وتفصيل بعض ما أوجزه الدين السابق من ناحية أخرى • ومعنى هذا أن الدين السماوي براء مما تضمنته التوراة من معتقدات وتصورات بدائية ، وأن هذه المعتقدات والتصورات أقحمت على التوراة اقحاما • •

وإذا كان فريزر قد استطاع أن يبرز ما في التوراة من بقايا معتقدات وديانات قديمة ، غفى وسعنا الآن أن نشير الى مدى تأثير هذه المعتقدات والديانات على الدين السماوي وفقا لمفهومه الواسع ، أو بتعبير آخر فاننا نشير الى مدى ما ألحقته هذه المعتقدات والديانات بالدين السماوي من تشويه • •

ان الأديان السماوية تهدف أولا وقبل كل شيء الى القضاء على عبادة الأوثان بشتى مظاهرها ، كما أنها تهدف الى السمو بمرتبة الأنبياء وتقدير صفاتهم التي تسمو في مجملها فوق صفات البشر العاديين بوصفهم قادة لهم ونماذج بشرية يحتذى بها • وهي تهدف كذلك الى تنزيه الخالق سبحانه عن كل الصفات الانسانية • فإذا نظرنا الى التوراة في ضوء ما أوضحه فريزر ، فاننا نجد أن الدين اليهودي

على هذا النحو تكتنفه بعض مظاهر عبادة الأوثان ، فقد قدس أنبياءهم بعض الأشجار وبصفة خاصة شجرة البلوط كما أشار المؤلف الى ذلك ، وكما استشهدنا على ذلك بكثير من نصوص التوراة في المكان المناسب من الترجمة . وكان يعقوب قد رأى في رؤياه حجرا انتصب فوقه سلم أخذت الملائكة تصعد وتهبط عليه ، فلما استيقظ نصب الحجر وصب فوقه الزيت وعده مقدسا ، ومنذئذ أصبح الحجر مقدسا لدى العبريين القدماء . ولم يثق إبراهيم بعهد الرب في أن أرض الميعاد ستكون له ولقومه من بعده ، الا بعد أن أدى الطقوس القديمة التي كان الناس يتبعونها عندما يتعاهد طرفان على أمر من الأمور ، فتذبح ذبيحة وتشطر ثم يمر بين شطريها الطرفان المتعاهدان . « وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض نقرتها . فقال أيها السيد الرب بماذا أعلم أنني أرثها . فقال له خذ عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة وحمامة . فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه وأما الطير فلم يشقه . فنزلت الجوارح على الجثث وكان أبرام يزجرها ، ولما صارت الشمس الى المغيب وقع على أبرام سبات واذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه . فقال لأبرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا في أرض ليست لهم ويستبعدون لهم فيذلونهم أربعمئة سنة ، ثم الأمة التي يستبعدون لها أنا أدينها . . . ثم غابت الشمس فصارت العتمة ، واذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين القطع . في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا ، لنسلك أعطى هذه الأرض بين نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات » (١) . ولعلنا نلاحظ في هذه الأمثلة وغيرها أن اليهودي كان يسعى دائما لأن يكون بينه وبين الرب وساطة حسية تعد من وجهة نظره مقدسة قداسة الرب ، فالبلوطة مقدسة والحجر مقدس

(١) سفر التكوين ١٥ : من ٧ الى ١٨ .

والذبيحة المشطورة التي يمر الرب بين شطريها في شكل دخان مقدسة كذلك • وعلى هذا النحو تتمثل قوة شمشون فيما يستمدّه من آله من قوة ، بل كانت قوته مستكنة في خصلات شعره التي لم تنقص قط منذ نعومة أظفاره • فلما قصت خصلات شعره ، فقد شمشون قوته وخارت قواه ولم يعد بعد شمشون الجبار •

فاذا انتقلنا الى تصوير التوراة للأنبياء فأننا نقرأ عجا • ويكفى أن تكون شخصية يعقوب على هذا النحو الذي صورته التوراة من الخداع والغش والحيلة والمكر حتى يمكننا أن نضع أيدينا على الصفات المستحبة عند الرجل اليهودي • فيعقوب في التوراة رجل مادي ذكي لبق • وقد استطاع بهذه الصفات أن يخفى ما به من صفات لا انسانية مثل الخداع والغش والمكر • ولم تكف التوراة بتصوير يعقوب على هذا النحو الكريه عندما خدع أخاه عيسو ، بل عادت فأكدت له هذه الصفات في معاملته لخاله لابان • فقد كان يعقوب ينوى أن يسلب الجزء الأكبر من قطيع خاله لابان وأن يرحل به سرا مع بناته اللاتي كان قد تزوج بهن وخدم خاله مقابل ذلك عدة سنين نمت له فيها قطعانه وأغنامه • ولننظر الآن الى الحيلة التي عمد اليها يعقوب في سبيل اتمام هذا الغرض كما تصورها التوراة • فقد اتفق يعقوب مع خاله أن يأخذ لنفسه كل الغنم المخطط والمرقط ويأخذ خاله الغنم الأسود • ووافق الخال على ذلك ، لأن الغنم المخطط والمرقط لم يكن كثيرا • « ثم أخذ يعقوب لنفسه قضباناً خضراً من لبنى ولوز ودلب ، وقشر فيها خطوطاً بيضاء كاشطاً عن البياض الذي على القضبان ، وأوقف القضبان التي قشرها في الأجران في مساقى الماء حيث كانت الغنم تجيء لتشرب • فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطاً وبلقا وأفرز يعقوب الخرفان • وجعل له قطعاناً وحده ولم يجعلها مع غنم لابان • وحدث كلما توحمت الغنم القوية أن وضع يعقوب القضبان أمام عيون الغنم في الأجران لتتوحم بين القضبان • • وحين استضعفت الغنم لم يضعها • فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب • فامتسع الرجل كثيراً جدا وكان له غنم كثير

وجوار وعبيد وجمال وحمير » • ثم جاء الى زوجته وقال لهما : « قد
 سلب الله مواشي أبيكما وأعطانى » • وبهذا « خدع يعقوب قلب لابان
 الآرامى اذ لم يخبره بأنه هارب » (١) ••

ولم يكن صموئيل أقل حيلة ومكرا من يعقوب • فعندما ثار
 الشعب اليهودى ضد الحكم الكهنوتى ونادى بأن يحكمهم ملك دنيوى ،
 عين صموئيل الملك شاعول ملكا على بنى اسرائيل بتفويض من الرب كما
 تذكر التوراة • وقد وقع اختيار صموئيل على شاعول بصفة خاصة لأنه
 كان يود أن يكون الملك الجديد خاضعا لسلطوته • وعلى الرغم مما كان
 يتمتع به شاعول من هبة وجلال أكسباه حب الشعب اياه ، فإنه كان
 فى الوقت نفسه يتميز بجانب ضعيف فى شخصيته أدراكه صموئيل كل
 الادراك قبل أن يقع اختياره عليه • ولكن عندما بدأ صموئيل يشعر بأن
 شاعول قد أخذ يستقل عنه ، وأن الشعب أخذ يتجمع من حوله ،
 أسرع وبحث عن مناوىء له متمثلا فى داود • واستطاع داود أن يجمع
 من حوله زمرة من بنى اسرائيل ، وبذلك دب الخلاف بينه وبين شاعول •
 ولم يكن فى استطاعة شاعول فى هذه الحالة وهو الانسان المرفه الحس ،
 أن يقود الجيش ضد الفلسطينيين • لما كان صموئيل قد مات فى ذلك
 الوقت ، فقد فزع شاعول الى قبره لعله يعينه فى مأزقه • واستطاعت
 ساحرة عين دور أن تستحضر له روح صموئيل • فصرخ به شبح
 صموئيل قائلا : « لماذا أفلقتنى باصعائك اياى • فقال شاعول ، قد
 ضاق بى الأمر جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقتنى ولم يعد
 يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك اكى تعلمنى ماذا أصنع •
 فقال صموئيل ، ولماذا تسألنى والرب قد فارقت وصار عدوك ، وقد فعل
 الرب لنفسه كما تكلم عن يدي • وقد شق الرب المملكة من يدك وأعطاها
 لقريبك داود لأنك لم تسمع لصوت الرب » (٢) •

(١) سفر التكوين ٣٠ : من ٢٧ الى ٤٣ •

(٢) سفر صموئيل الاول ٢٨ : ١٥ الى ١٨ •

والواقع أن من يقرأ سفر صموئيل لا يرى أن شاعول قد ارتكب
 اثماً في حق الرب أو في حق صموئيل . فقد كان صموئيل قد أمره
 بمحاربة شعب العماليق وقال له : « ولا تقف عنهم بل اقتلهم رجلاً
 وامرأة ، طفلاً ورضيعاً » . فامتلئ شاعول لأوامره وقبض على أجاج
 ملك العماليق وأحضره إلى صموئيل حياً . ولكن الشعب اليهودي
 استحل لنفسه ذبح بعض الغنائم مثل خيـار الغنم والبقر . فلما تهدده
 صموئيل قائلاً : « لماذا لم تسمع لصوت الرب بل ثرت على الغنيمة
 وعملت الشر في عيني الرب » تحداه شاعول قائلاً : « انى قد سمعت
 لصوت الرب وذهبت في الطريق الذى أرسلنى فيها الرب وأتيت بأجاج
 ملك عماليق .. فأخذ الشعب من الغنيمة غنماً وبقرًا وأثل الحرام لأجل
 الذبح للرب الهك » . وإذا كان صموئيل قد عين شاعول ملكاً على
 الشعب اليهودي بتفويض من الرب كما يتضح من قوله : « إياى أرسل
 الرب لمسحك ملكاً على شعبه إسرائيل » ، فإنه عاد وعبر عن حقه عليه
 في خاتمة تجربته معه فقال : « والرب ندم لأنه ملك شاعول على
 إسرائيل » (١) ..

فاذا انتقلنا بعد ذلك إلى طريقة تشخيص التوراة للرب ، فأننا
 نجد في هذا التشخيص أثر المعتقدات والتصورات القديمة من ناحية ،
 كما نلاحظ من ناحية أخرى عدم مقدرة اليهودي على السمو بالخالق
 وتنزيهه عن الصفات البشرية . فقد ظهر الرب ليعقوب في صورة انسان
 أمسك يعقوب بتلابيبه حتى لا ينفلت منه الا بعد أن يباركه ويبارك
 قومه ، وكأنه لم يكن ليحصل على بركة الرب الا على هذا النحو » . فبقى
 يعقوب وحده وصارعه انسان حتى طلوع الفجر . ولما رأى أنه لا يقدر
 عليه ضرب حق فخذه ، فأنخلع فخذ يعقوب في مصارعة معه وقال
 أطلقنى لأنه قد طلع الفجر . فقال له لا أطلقك ان لم تباركنى . فقال له

(١) انظر سفر صموئيل الاول الاصحاح الخامس عشر والسادس عشر .

ما اسمك ؟ فقال يعقوب • فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت • وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمي ، وباركه هناك » (١) ••

وإذا كان الرب قد صور في التوراة على هيئة انسانية ، فلا عجب أنها خلعت عليه صفات انسانية ، بل صفات غير محببة الى النفس البشرية • فقد طرد الرب آدم وحواء وفقا لقصة التوراة ، لا لمجرد مخالفتها للمحظور الذي حذرهما منه الرب ، ولكن لأنهما سلباه صفة كان يود أن يستبقياها لنفسه دون البشر وهي معرفة الخير والشر • ومن ثم فقد أسرع الرب في طردهما من الجنة قبل أن يتمكنوا من أن يسلباه صفات الهية أخرى وبصفة خاصة صفة الخلود ، وذلك اذا ما تهورا وأكلا من الشجرة الثانية المحرمة وهي شجرة الحياة • « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر • والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد • فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها » • بل أن الرب ظل يخشى من أن يسطو الانسان على شجرة الخلد خلصة ولذلك فقد جعل « لهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » (٢) ••

وربما كان هذا المجال مناسباً لأن نقارن ما رواه القرآن بما روته التوراة فيما يختص بالقصص الديني الذي تعرض غريزر لبحثه في هذا الكتاب ، حتى نلقى بذلك مزيداً من الضوء على مدى ما اعترض القصص الديني في التوراة من تحرير وتغيير ••

قال تعالى في سورة البقرة : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا

(١) سفر التكوين ٣٢ : من ٢٤ الى ٢٩ •

(٢) سفر التكوين ٣ : من ٢٢ الى ٢٤ •

بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين . » كما قال تعالى في سورة طه : « فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . » فهذه الآيات تقدم الخطوط الأساسية لقصة آدم وحواء منذ أن خلقا في الجنة الى أن أخرجا منها . فبعد أن خلق الله آدم وحواء أمرهما ألا يأكلا من شجرة ما في الجنة ، فلما عصيا أمره أخرهما الله من الجنة وجعلهما يهبطان الى الأرض ليعيشا فيها هما ونسلهما من بعد حياة غير خالدة . فالمسألة هنا تتعلق بتحريم وعصيان لهذا التحريم ، أو هي بتعبير آخر اختبار لطبيعة الجنس البشرى ، تلك الطبيعة التي لازمت الانسان منذ بدء الخليقة حتى اليوم ، وهي التي تتمثل في ضعفه أمام قوة الاغراء المادي . وإذا كان هذا هو هدف القصة ، فاننا نجد أن القرآن قد نحا الى التجريد الذي هو من أخص خصائص القرآن الكريم . ومن ثم فإن القصة لم تصور لنا كيف استطاع الشيطان أن يقتحم عالم آدم في الجنة ، كما أنها لم تصف الشجرة التي حرمت عليه . وإذا كانت الشجرة قد وصفت بأنها شجرة الخلد على لسان الشيطان ، فانما كان هذا على سبيل اغراء الشيطان لآدم بالأكل منها .

ولما كانت قصة آدم في القرآن قد عرضت على هذه الصورة التجريدية ، فقد كان من الطبيعي أن يخوض المفسرون في تفصيلاتها ، وأن يتركوا العنان لخيالهم لكي يصوروا كيف خلق الله آدم، بل الطريقة التي أحضر بها الطين من الأرض ، وطبيعة الشجرة التي نهى الله آدم عن أكل ثمرها (١) .

ومن المفسرين من يقف موقف الحذر ازاء هذه التفصيلات حيث ان القرآن لم يتعرض لها في شيء . ومن ذلك ما ذكره الطبري معلقا على

(١) انظر تفسير الطبري ج ١ من ص ١٥٣ الى ١٨١ (ط . دار المعارف) .

آراء المفسرين الذين خاضوا في وصف الشجرة المحرمة ، فقال :
 « ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده
 دليلاً على ذلك في القرآن أو في السنة الصحيحة . غأنى يأتي ذلك من
 أتى ، وقد قيل كانت شجرة البر ، وقيل كانت شجرة العنب ، وقيل
 كانت شجرة التين وجائز أن تكون واحدة منها . » (١) .

ومن المعروف أن تفسير القرآن قد تعرض لتأثير ما سمي
 بالاسرائيليات . وإذا كانت قصة الخلق في التوراة لقد ذكرت غواية
 الحية لحواء ، فإن هذا التصوير لم يكن بعيداً عن أذهان المسلمين الذين
 حاولوا أن يوفقوا بينه وبين ما ذكره القرآن الكريم من غواية الشيطان
 لآدم وحواء معا . ومن ثم فقد صور الخيال تنسعي الشيطان وقد دخل
 في جوف حية حتى يصل الى الجنة التي كان قد طرد منها من قبل .
 وإذا كانت التوراة قد لعنت الحية على لسان الرب عندما قال لها :
 « ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك
 تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك » (٢) . فإن هذه الصورة قد
 انتقلت بدورها الى التفسير ، فصورت الحية قبل أن تحل بها اللعنة
 بأنها كانت لها قوائم كفوائم الجمل . فلما حلت بها اللعنة ، فقُصرت
 قوائمها وأصبحت ترحف على بطنها .

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى قصة التوراة ، فالتنا نفاجأ أول الأمر
 بأن القصة تنحو الى تشخيص الرب على نحو انساني . فهو يتمشى في
 الجنة في المساء الرطب ، وهو ينادي آدم الذي اختبأ وراء الشجر ،
 ولم يكن يعرف آنذاك أنه قد أكل من الشجرة المحرمة . ثم انه صنع
 لآدم وحواء ثياباً من الجلد وألبسهما اياها بدلاً من ورق الشجر الشحيح
 الذي غطيا به عورتهما . وعلى هذا النحو تتعرض القصة لذكر تفاصيل
 عن الشجرتين المحرمتين ، فتذكر أن احدى الشجرتين كانت شجرة

(١) تفسير الطبري ج ١ ص ١٧٩ .

(٢) سفر التكوين ٣ : ١٤ .

معرفة الخير والشر وأن الشجرة الأخرى كانت شجرة الحياة • فلما أكل آدم وحواء من شجرة معرفة الخير والشر وأصبحتا ندا للاله في المعرفة ، خشى أن يأكلا من شجرة الحياة فطردهما من الجنة ••

وبهذا تختلف قصة آدم وحواء في كل من القرآن والتوراة اختلافا جوهريا •• ففضلا على اختلافهما في طريقة العرض ، فانهما تختلفان في المغزى والهدف • فإذا كان آدم قد أخرج من الجنة في قصة القرآن ، فلأن سكناه في الأرض كانت مقدرة له من قبل بدليل قوله تعالى للملائكة قبل خلقه آدم: « واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك • قال اني أعلم ما لا تعلمون » • فإذا كان عصيان آدم الله مقدرا له من قبل ، فان هدف القصة يتضح بعد ذلك وهو تأكيد النوازع الانسانية ، وابرار جوانب لضعف فيها التي جعلتها موضوعا لاغراء الشيطان على الدوام • أما قصة التوراة ، فقد أخرج الله آدم من الجنة غيظا منه وحنقا عليه ، لأنه أصبح نده في المعرفة • وقد تصور أن البلاء سيكون أكبر من ذلك لو أنه أكل من شجرة الخلد ••

فإذا انتقلنا الى قصة قابيل وهابيل في كل من التوراة والقرآن ، فاننا نجد أن قصة التوراة قد أضافت تلك الاضافة التي حيرت مؤلف هذا الكتاب فأخذ يتساءل عن مغزاها الى أن ردها الى المعتقدات والعادات البدائية • فقد تصرع قابيل الى الرب بعد أن قتل أخاه وقال له : « انك قد طردتني اليوم عن وجه الارض ومن وجهي أخفتني وأكون تائها وهاربا في الأرض ، فيكون كل من وجدني يقتلني » • ويبدو أن الرب قد حنا عليه رغم فعلته الشائنة فقال له : « لذلك كل من قتل قابيل فسبعة أضعاف ينتقم منه ، وجعل الرب لقابيل علامة لكي لا يقتله كل من وجده » (١) • وهنا نجد أنه على الرغم من أن قابيل قد قتل

(١) سفر التكوين ٤ : ١٣ الى ١٦ •

أخاه فقد أعلن الرب وفقا لنص التوراة ، أن من قتل قايين منه بسبعة
أضعاف جريمته ...

أما قصة قابيل وهابيل في القرآن فترد على النحو التالي : « وائل
عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل
من الآخر . قال لأقتلك قال انما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت الى
يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين .
انى أريد أن تبوأ باثمي واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء
الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين .
فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال
يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخى فأصبح
من النادمين » (١) . وهذا يؤكد الله سبحانه وتعالى تأصل الشر في
الجنس البشرى ، حيث ان قابيل القاتل سوف يترك من ورائه سلالة
التي تنزع مثله الى الشر ، كما أنه أكد نهاية نبي الانسان عندما يموتون
ويوارون في التراب ..

والفرق جلى بين صورة يعقوب في القرآن وصورته في التوراة .
فأين صورة الشيخ الجليل الذى أخذ يبكي على ابنه يوسف حتى
ابيضت عيناه ، والذى كان يعلم بمكر بنيه ورد عليهم في وقار قائلا :
« فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » (٢) ، من تلك الصورة
الماكدة الخادعة التي رسمتها التوراة للنبي الجليل ! ..

ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن سبب تصوير التوراة للاله
والأنبياء على هذا النحو ، ثم عن سبب ارتباط دينهم بكثير من المعتقدات
الوثنية . فهل يرجع سبب هذا الى أن التوراة قد كتبها مؤلفون حوروا
ما شاء لهم التحوير في روايات دينهم ، وعبروا عن معتقدات اليهود

(١) سورة المائدة من آية ٢٦ الى ٣٠ .

(٢) سورة يوسف من الآية ١٨ .

وتصوراتهم بصفة عامة ؟ ولكن لماذا ظل اليهود مرتبطين بهذه المعتقدات البدائية على الرغم من نزول الدين السماوى على موسى ؟ ربما استطعنا أن نجيب عن هذه التساؤلات المختلفة اذا استطعنا أن نغوص بعض الشيء فى فلسفة الأديان ..

وأول شئ ينبغى علينا أن نقرره بهذا الصدد ، هو أن العقيدة ضرورة روحانية تنبثق من ذات الانسان فى كل زمان ومكان ، سواء كانت العقيدة فى شكلها الأولى الاساذج أو كانت فى صورتها المتطورة الراقية . وأساس العقيدة هو احساس الانسان بالارتباط بقوة أكبر منه لا يريد أن يتحرك الا من خلالها . فالانسان البدائى لم ير اذن فى الرعد والبرق والمطر والنور والظلمة آلهة لمجرد أنه كان يخاف من الرعد أو يرغب فى المطر الى غير ذلك ، وإنما رأى فى هذه الظواهر آلهة تعبيرا عن احتياجه النفسى الى الارتباط بقوة علوية يتحرك ويرغب من خلالها . فالاله والانسان منذ قديم الزمن ليسا قوتين تقف كل منهما فى مقابل الأخرى ، بل هما بالأحرى متداخلتان . ذلك أن الانسان يجد نفسه مرتبطا بالاله وواقعا فى أسره ، وداخلا ضمن ملكوته . ولا عجب بعد ذلك أن نجد العقيدة تحتضن العناصر الآتية : الحب والادراك والمقدرة على تشخيص طبيعة الاله ، والارادة والتأثير . وبدون الحب تكون العقيدة عمياء ، وبدون الادراك تكون العقيدة باهتة ، وبدون المقدرة على تمثيل المخلوق تكون العقيدة غير حقيقية وبدون الارادة والتأثير تكون العقيدة غير مثمرة (١) . ولا تخلو أكثر الاشكال الدينية سذاجة من ادراك للقوة فوق الطبيعية ومن الاحساس بالحب ازاءها ، ومن المقدرة على تشخيصها ، وأخيرا من العادات والطقوس التى تعبر عن ارادة الانسان والسعى الى التأثير فى هذه القوة الالهية ..

فاذا أصبح تصور القوى الالهية حيا فى نفس الانسان ، أصبح للظواهر الطبيعية والأحلام والموت الى غير ذلك مغزى دينى ، واكتسبت

Othamar Spann : Religious Philosophie, p. 12 (Wien 1947). (١)

مخاوغه ورغباته صفة روحانية • ويمكننا أن نتمثل موقف الانسان من القوى العليا وطريقة وصوله اليها اذا تصورنا شكلا مخروطيا تقع في قمته القوة العليا وفي أسفله يقف الانسان ، وبين القوة العليا والانسان يقف الوسيط الذي يتمثل في الطبيعة بشتى مظاهرها • وهناك وسيلتان يصل بهما الانسان الى القوى العليا ، طريق مباشر دون وساطة وهو ما يسميه الفلاسفة طريق الأحوال الصوفية ، وطريق آخر غير مباشر يصطدم فيه الانسان بالوسيط الذي ربما كان عائقا في سبيل وصول الانسان للالتحاق بالقوى العليا ، ويسمى طريق الأحوال السحرية • وكلا الطريقتين يخوضهما الانسان نتيجة وعيه بذاته • فالوعى بالذات كما قال هيجل يعنى الوعى بذاتية الذات وموضوعيتها • فعندما تسعى الذات الى تشخيص الذات العليا ، فان هذا التشخيص يمثل الجانب الموضوعى من هذا الادراك (٢) • والوعى بالذات يقود الى الأجواء غير المادية ، أى أنه يمثل تلك الحالة التى ينغمس فيها الانسان فى الوجود الكلى • ولعل هذا يفسر لنا حرص الشعوب جميعا على رواية قصة الخلق ، وذلك أن قصة الخلق تعد تشخيصا لحاجة الانسان الى ارتباطه بالقوى العليا ، فهو اذن مرتبط بها منذ الأزل ، بمعنى أنها هى التى خلقتة وهى التى حددت مصيره • أى أن الانسان والطبيعة معا يعدان خيضا من الله • على أن ادراك الانسان للقوى العليا لا ينبع من حاجته الى ارتباطه بالكل الكامل فحسب ، وانما ينبع كذلك من احساسه بعدم كمال ذاته وعدم كمال عالمه • فعن طريق مقارنة وجود الله العلى الكامل من خلال التجربة الصوفية ، بوجود الانسان المادى ، يتبع بالضرورة استبعاد كل ما يشعر به الانسان من نقص فى ذاته أو فى عالمه عن الخالق • ولهذا السبب فان الحالة الروحية تنبثق من نزوع الانسان الى التخلص من غربته عن عالم الخالق ، والى السعى نحو التمثل به ، وهو الأمر الذى يقوده الى تشكيل حياته بتقاليد محددة وبسلوك نى طابع روحانى ، أى أن الانسان

يخوض تجربة داخلية تسمو به فوق المدركات الحسية أى فوق النطاق
المادى المحدود ..

على أن الانسان يخوض هذه التجربة بوصفها كلا اذا بدأ من أعلى
الى أسفل ، وذلك نتيجة احساسه المفترى بارتباطه بالقوى العليا ..
ويؤيد هذا قصة ابراهيم عليه السلام عندما سعى من خلال التجربة
التأملية الى التبحر عن الاله فى العالم الارضى ، بل فى العالم السماوى
البعيد . فاصطدم بالكوكب أول الأمر فقال : « هذا ربى فلما أفل قال
لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن
لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال
هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون . انى
وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من
المشركين » (١) . فابراهيم عليه السلام كان يخوض تجربة صوفية بدأها
من العالم العلوى وظل يبحث عن تشخيص للخالق حتى أقر بأنه أكبر من
كل القوى الطبيعية المتدفقة منه ..

أما اذا بدأ الانسان تجربته الروحية من أسفل الى أعلى ، فانه
يسير فى الطريق غير المباشر الذى يصطدم فيه بالظواهر الطبيعية المتعددة
التي يخلع عليها صفات سحرية . وهو يظل يعيش فى هذا العالم
السحري الذى يحول بينه وبين خوص التجربة التأملية التى يتصل
الانسان عن طريقها بالله اتصالا مباشرا . وفى هذا العالم السحري تلعب
الأرواح الخيرة والشريرة انتى تعد فى الحقيقة تشخيصا لمخاوف الانسان
ورغباته — نتيجة احساسه بارتباطه بقوى فوق الطبيعية — دورا كبيرا
فى حياة مثل هذا الانسان . ولهذا فانه يخشى الاساءة الى ظواهر الطبيعة
لأنها فى الوقت نفسه تعد اساءة القوى العليا . وهو يتجنب هذه الاساءة
لأنه يخشى عقاب القوى الخفية المتربصة به ..

(١) سورة الانعام من آية ٧٦ الى ٧٩ .

فاذا حاولنا أن نتبين في ضوء هذا الكلام ملامح الدين اليهودى كما يعرض في التوراة ، فأننا نرى أن اليهودى لم يستطع أن يتصل بالله اتصالا مباشرا عن طريق التأمل أو الرؤيا أو انور الباطنى . وانما وقف في منتصف الطريق حيث الوسيط أو الوسائط التى يمكن أن تربطه العادات والتصورات القديمة التى استطاع فريزر أن يكشف عن الكثير بالقوى الالهية . وهذا يفسر سبب تعلقه بطقوس السحر وبكثير من منها . حقا ان كل شعب من شعوب العالم أيا كان نوع دينه السماوى ، احتفظ أو مازال يحتفظ ببعض المعتقدات القديمة التى ربما استطاع أن يكيّفها ويغير صورتها بحيث يمكن أن تتلاءم مع دينه الجديد ، ولكن الدين السماوى في حد ذاته اجتهد في أن يخلص العقيدة الجديدة من الشوائب القديمة ومن التصورات الوثنية ومن تلك الوسائط المادية التى يمكن أن تكون عائقا بينه وبين الصعود في مراتب من النور الباطنى الذى يصل به الى وجود الله وطبيعته ..

ولم يستطع اليهود — كما هو معروف عن تعلقهم الشديد بالمادة — أن ينسلخوا من هذه المادية وأن يسموا بدينهم ، أو على الأقل يحتفظوا بأصوله الروحية السامية . ومن ثم فقد ظلوا متعلقين بكل الوسائل المادية التى حجبهم عن الرؤية الالهية الخالصة . ولا عجب بعد ذلك أن يلجأ شامول لى ساحرة عين دور لى لكى تكشف له عن مصير شعبه في الحرب بدلا من أن يفرع إلى الله ليعينه فيها . ولا عجب ألا يثق ابراهيم من عهد الرب الا بعد أن أدى الطقوس الوثنية القديمة التى كانت تتبع عند عقد عهد من العهود بين طرفين . ولا عجب أن شخص اليهودى الرب على هيئة انسان أمسك يعقوب بتلابيبه حتى يباركه . ولا عجب أن ترسبت في دينه كثير من المظاهر البدائية على نحو ما أوضحه المؤلف في كتابهم المقدس ..

* * *

وبعد تلك الجولة في عالم الأديان التى حاولنا من خلالها أن نتبين طبيعة الدين اليهودى ، نحاول الآن أن نلقى بعض الضوء على منهج فريزر في هذا الكتاب ، وبوصفه باحثا أنثروبولوجيا بصفة عامة ..

لقد كان العالمان الأنثروبولوجيان : مالىنوفسكى وفريزر متعاصرين • ومع أن كلا منهما كان له منهجه الخاص به فى البحث الانثروبولوجى الاجتماعى ، الا أن كلا منهما يعد عملاقا فى مبدانه ، فكلاهما كان يبحث وهو على وعى تام بما تتصف به الطبيعة البشرية من تعقيد ، وكلاهما كان يكتب بأسلوب حاذق موضوعى ، وان لم يصل أسلوب مالىنوفسكى الى ما وصل اليه أسلوب فريزر من لباقة ودقة • وكلاهما أغرم بوصف المظهر الشعائرى للحياة • وقد كانت عملية تحليل المعتقدات بالنسبة لكليهما رحلة استكشاف للروح الانسانية • وكلاهما كان يبحث دائما عن القرائن للحقائق المدركة كما أن كليهما كان يتحرك من الحقائق الى النظرية ومن النظرية الى الحقائق ، وان كان فريزر أكثر استقصاء للظواهر فى أبحاثه من مالىنوفسكى ••

ومع كل وجوه التشابه هذه بين الباحثين ، فإن مالىنوفسكى قدم للبحث مادة أكثر غنى ووفرة فى كتاباته الانثوجرافية (الانثروبولوجيا الوصفية) • وهو فضلا على هذا وضع نموذجا للعمل الميدانى ولتوثيق نظريته التى تتلخص فى تحقيق المنهج الوظيفى على أكمل وجه ، بحيث يحتذى به فى العصر الحديث • ولقد أشاد فريزر بمنهجه هذا فقال : « ان من أهم ما ميز منهج مالىنوفسكى أنه كان يضع نصب عينيه الطبيعة الانسانية المعقدة بوصفها كلا • فلو كان ينظر الى الانسان فى المحيط الذى يحيط به لا فى المسطح المكانى الذى يعيش فيه ، ذلك أنه كان يتذكر على الدوام أن الانسان مخلوق تتحكم فيه العاطفة بقدر ما يتحكم فيه العقل • ومن ثم فقد كان كل همه أن يستكشف الجانب العاطفى بقدر ما يستكشف الأساس العقلى لسلوكه » (١) • فهل كان هذا الأساس المنهجى والنظري ينقص فريزر فى أبحاثه ومن فقد أقر بأهميته ؟ ان ما كان ينقص منهج فريزر بحق هو توسيع ثم نطاق العمل الميدانى واستكشاف الروح الانسانية من جانبيه العقلانى والعاطفى وذلك

Man and Culture : Edited by Raymond Firth, p. 71, London, (١) 1960.

عن طريق الربط المتنام بين جميع ممارسات الانسان وسلوكه • أى أنه كان ينقصه ما وصف به مالىنوفسكى من أنه ينظر الى الانسان فى المحيط الذى يحيط به وليس فى المسطح الذى يعيش فيه • فكثيرا ما اعتمد فريزر فى دراساته على ما دونه المبشرون عن القبائل البدائية ، وكثيرا ما اعتمد فى أبحاثه على دراسات الباحثين بدلا من اعتماده على الاتصال المباشر بالناس عن طريق العمل الميدانى • ذلك أن منهجه كان يعتمد على جمع الحقائق جمعا مستقصيا وبشتى الطرق بقصد اثبات نظريته فى ظاهرة من الظواهر الانسانية • ولهذا فقد أخفق فريزر فى أن يجد تفسيراً لبعض الظواهر الاعتقادية • ومثال هذا أنه قد تحدث بصدد بحثه عن تقديس بعض الأشجار ، عن عادة تعليق الخرق الملونة عليها • ومع استقصائه البالغ فى البحث بقصد تأكيد هذه الظاهرة ، الا أنه لم يقدم أى تفسير لمغزى تعليق الخرق على الأشجار بقصد التوصل الى روح الشجرة • وسبب هذا أنه لم يكن يهتم باستكناه مغزى الفعل بقدر ما كان يهتم بسرده ••

ومع كل هذا فخلد قدم فريزر للقارئ المتخصص مادة وافرة لا غنى عنها فى دراسة الحياة الانسانية • ولقد استطاع أن يثبت عن طريق دراساته المقارنة تلك التقاليد والمعتقدات التى تخلفت مع الانسان عبر التاريخ وانتهى رجع فى أصولها الى الحياة البدائية الأولى • وبهذا استطاع أن يستكشف ما تخلف فى التوراة من معتقدات وعادات قديمة كانت لها أبلغ الأثر فيما اتسم به الدين اليهودى من جوانب ضعف : فضلا على أنها كشفت عن شخصية اليهودى الذى استغل الدين كل الاستغلال فى سبيل تحقيق أطماعه المادية ••

وإذا كان فريزر قد تناول فى الموضوعات التى طرقتها تناول العالم المدقق الذى ينبغ فى موضوعية تامة عن خبايا الأمور بقصد استكشاف كنهها ، فاننا نرى أنه قد استخدم هذا المنهج فى غير ضرورة فى قصة موسى عليه السلام • فقد حاول فى هذا الفصل

أن يعزل القصة عن الحقائق التاريخية ، وأن يقرن بينها وبين ما يماثلها من قصص شعبية مروي . وقد اقتضت منا الأمانة العلمية أن نترجم هذا الفصل كما هو على مسئولية المؤلف .

هذا وقد تطلبت منا الترجمة الكاملة التي تقع في مجلدين ، كل مجلد على حدة ، أن نذيلها بهوامش لتوضح بعض الأمور التي لم يوضحها المؤلف في كتابه هذا . كما أننا أشرنا الى مصدر آيات التوراة التي أغفل عمدا ذكر مكانها في التوراة على سبيل الاختصار كما ذكر في مقدمته . وكذلك استشهدنا في بعض الأحيان بآيات لم يشر اليها المؤلف وذلك بقصد القاء مزيد من الضوء على ما تعرض له المؤلف في دراسته من عادات وطقوس عند العبريين القدماء .

حول المؤلف والكتاب

إذا كان فريزر يمثل حقبة في الدراسات الأنثروبولوجية انقضت بموته عام ١٩٤١^(١) ، فإن هذا يعنى أنه يمثل مدرسة في الميدان الأنثروبولوجى تسير وفقاً لمنهج محدد وتهدف إلى تحقيق هدف بعينه . ولذا يتحتم علينا ، قبل أن نعرض لكتابه « الفولكلور في العهد القديم » أن تبين معالم هذه المدرسة ومنهجها وهدفها ، لنرى ما إذا كان فريزر قد استطاع بمؤلفه هذا أن يؤكد منهجه وهدفه . ولكننا قبل أن نفعل هذا ، يحق لنا أن نقدم القارئ صورة تقريبية لشخصية هذا العالم الانسانى الكبير ، ولعلاقاته بعلماء عصره بخاصة هؤلاء الذين كانوا يعملون في ميدانه .

لقد كان فريزر يمثل أكثر من أى باحث من الباحثين المعاصرين له ، الاتجاه الانسانى الذى كان يستلهم الدراسات المقارنة في سبيل فهم التراث الاغريقى واللاتينى والشرقى القديم . وربما ظل اسمه خاتمة العلماء الانسانيين الكلاسيكيين الكبار . ولقد كان واسع العلم متعدد الاتجاهات ، فقد درس علم الطبيعة وعلم الأحياء ، وبعض فروع أخرى من العلوم الطبيعية . وكان يقرأ هوميرو باللغة الاغريقية وأوفيد وفرجيل باللاتينية ، والكتاب المقدس بالآرامية . وفضلاً عن ذلك فإن أعماله الكبيرة المتعددة لم تمنعه من كتابة المقالات والشعر^(٢) .

أما عن علاقة فريزر بعلماء عصره ، فإننا ندع العالم الأنثروبولوجى المرموق مالبنوفسكى ، يتحدث عن ذلك حيث أنه كان على علاقة وثيقة

(1) Manlinoski : A Scientific Theory of Culture : 1944 P. 179.

(2) Ibid : P. 179.

به زما طويلا ، وحيث أنه تعرض لنقد أعماله ونظرياته نقد العالم
الحصيف المنصف ، فذكر ما له وما عليه . يقول مالفينوفسكى :

« لقد عرفت فريزر طيلة الواحد والثلاثين عاما الأخيرة من
عمره . وفى خلال هذه السنوات الطوال استطعت أن أتبع كثيرا
من علاقاته الشخصية مع جماعة الأنثروبولوجيين ، كما حاولت أن أفهم
منهجه فى تناول المشكلات والحقائق ، وأن أدرس تطور أفكاره
ونظرياته ، فانتهيت الى أن فريزر كان مصدر الهام كثير من المفكرين
والكتاب المحدثين فى الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية والانسانية .
ومع كل هذا فقد كان فريزر يعانى مشقة كبيرة فى مناقشة موضوع
من الموضوعات أو رأى من الآراء مع باحث من الباحثين ، اذ قلما
نجح الانسان لكبير فى أن يدير مناقشة على طريقة المدرس الذى
يعطى ويأخذ . وكان من الضرورى لحدثه أن يترث معه حتى توانيه
لحظة الالهام ، فترتجل بضعة فقرات جميلة شبيهة بتلك التى نجدها
فى كتاباته . وعلى الرغم من هذا العيب ، فقد عرف عن فريزر اهتمامه
البالغ بالحقائق الجديدة التى تفسر عنها استكشافات الباحثين فى
العمل الميدانى ، كما عرف عنه مقدرته فى حث الباحثين الميدانيين عن
طريق المراسلة . ولقد كان لذهاباته التى أرسلها الى فى أثناء
رحلاته فى غينيا الجديدة وميلانيزيا أكبر عون لى فى أبحاثه سواء عن
طريق اقتراحاته أو استفساراته أو تعليقاته .

ومن انطبعى أن يكون فريزر بناء على افتقاره لروح الجدل
والمناقشة ، محاضرا غير ناجح ، بل انه كان محاضرا غير مكثر ،
وكان يفضل أن يقرأ محاضراته عن أن يتلوها ارتجالا ويناقشها مع
طلابه . ومعنى هذا أن فريزر لم يكن معلما بالمعنى الضيق لهذه
الكلمة ، اذ لم يكن فى وسعه أن يطور جدله ويدافع عن نظرياته
عن طريق النقاش . ومع ذلك فلا يستطيع أحد أن ينكر أنه كان معلما
بالمعنى الواسع لهذه الكلمة ورائدا من كبار رواد العالم فى مجال
البحث الأنثروبولوجى ، فقد كان فرويد يعتمد عليه فى أبحاثه عند

تطبيقه لنظرياته في علم النفس التحليلي في المجال الأنثروبولوجي .
وكان له تأثيره الكبير على دور كلیم ومدرسته التي كان من أعلامها هان
جينيب وليفي بريل ، وهربرت ، وبوجليه . كما أرسى الباحثون الألمان
من أمثال فونت ، وتور نفالد ، وبرويس وغيرهم ، دعائم علمهم على
أساس نظريات فريزر وعلمه الواسع في الدراسات الأنثروبولوجية
أساس نظريات فريزر وعلمه الواسع في الدراسات الأنثروبولوجية .
وسواء اتفق الباحثون الانجليز من أمثال ويسترمارك وكرولي
وجيلبرت موري ، وجين هاريسون ، وسيدني هارتلاند واندرو لانج ،
معه في نظرياته وآرائه أم لم يتفقتوا معه ، فانهم بدون شك قد
استمدوا توجيهاتهم ومفاتيحهم في البحث منه . بل انه ترك أثرا بعيد
المدى في جماعة من المفكرين الرواد في مجال لتاريخ والفلسفة وعلم
النفس والأخلاق من أمثال أفاتول فرانس وبرجسون وأرنولد توينبي ،
وثبنجلر . ويتضح هذا عندما كان هؤلاء يتعرضون للموضوعات
الأنثروبولوجية الأساسية مثل « التابو » والنطوطية والسحر والزواج
وأشكال الديانة البدائية وتطور النظم السياسية (١) .

وقد وهب فريزر ميزتين كبيرتين احدهما مقدرة الفنان على
خلق عالم خيالي خاص به ، وثانيتهما حصافة العالم الصادق في
التمييز بين ما هو وثيق الصلة بالموضوع الرئيسي وما هو ثانوي .
وقد تولد عن الصلة الأولى أسلوبه الساحري ومقدرته على صياغة
الشواهد الاثنوجرافية الجامدة في شكل قصص دراسي ، كما يبدو
هذا تماما في كتابه « الفولكلور في العهد القديم » ، كما تولد عنها مقدرته
على خلق الرؤى من البلاد البعيدة والحضارات الغريبة . أما الميزة
العلمية الثانية ، فقد تولد عنها حسه التجريبي الذي قادة الى التجوال
بين عالم المادة الاثنوجرافية لكي يستخلص منها الشواهد التي كثيرا
ما كانت تؤدي الى بطلان نظرياته نفسها ، وان كانت تقدم لنا في المكان

(١) Malinowski : op. cit. pp. 182-184.

المناسب لها حقائق عن السحر والدين وعن الطوطمية ونظم الزواج ، وكل ذلك داخل الاطار الواقعي ، بما جعلها تنبض برغبات الناس ومعتقداتهم واهتماماتهم . وبهذا استطاع فريزر أن ينظم المعرفة الجافة المتراكمة في شكل هندسي رائع من الشواهد ، محتضنا الكثير من الأفكار التي صاغها الباحثون من بعده في شكل نظريات وقد كان من أهم ثمار هذا الجهد العلمي الرائع ، كتاب « الغصن الذهبي » الذي يحكى قصة الفكر والروح الانسانية الموغل في القدم ، وكتاب « الطوطمية والزواج من الأبعاد » وهو الكتاب التعليمي ثم كتاب « الفولكلور في العهد القديم » الذي يعد أشبه بأسطورة أنثروبولوجية رائعة .

وبقدر ما كان فريزر يعيش في عالم الخيال ، كان يعيش في عالم الواقع الموضوعي . وقد استطاع أن يشكل نظرياته في شكل طبع من الشواهد التي جمعها من جميع أنحاء العالم . وهذا يفسر لنا سبر اهتمامه بحقائق العمل الميداني وعدم اكتراثه بالنظريات الا فيما ندر . ذلك أنه كان يرغب دائما في أن يضيف شيئا الى عالمه الحي ، عالم الوجود الانساني الدرامي . وفيما عدا هذا كان يكره تشريح هذا العالم عن طريق النقد النظري . وعندما غضب من اندرولانج لنقده الساخر من كتابه « الغصن الذهبي » لم يكن غضبه منه لتجريحه الشخصى فيما يقوله الباحثون ، بقدر ما كان بسبب تجريحه عالم أوريرس وفيربيوس وبالدور (1) .

مكانة فريزر في مجال الدراسات الأنثروبولوجية :

كان فريزر على رأس المدرسة التطورية التي ركزت اهتمامهم على دراسة الجانب البدائي في الجنس البشرى . وقد كان فريزر يبحث عن هذا الجانب البدائي في التقاليد والعادات والممارسات

(1) Malinowski : op. cit p. 185.

بصفة عامة كما كان يبحث عنه عند البدائيين ، بل ولدى الجنس البشري في كافة مستويات رقيه الحضارى . أما الوسيلة التى كان يستعين بها في هذه الدراسة الواسعة فهي المنهج المقارن الذى يعتمد على جمع المادة من جميع أنحاء العالم ثم المقارنة بينها . وقد تطلب منه ارتباط المنهج المقارن بفكرة التطورة في سبيل فهم الانسان بعض المفروض العامة التى تتلخص في أن الناس يتشابهون أساسا في الجوهر ، لأن الشعوب جميعا قد بدأت من مرحلة بدائية ، ومرت تدريجيا بمراحل مختلفة من التطور . ومن الممكن استكشاف المقياس انعام لسلوكهم وأفكارهم عن طريق الاستقراء الذى يعتمد على النظرة الشاملة للمادة المجموعة . وعند ذلك يواجه الباحث ما يسمى بالبقايا المتخلفة ، وهى تلك البقايا المتبقية من المعتقدات والعادات التى عاشت مع الانسان في عصوره البدائية . ثم ترسبت أو ترسب بعضها معه في أطوار رقيه . وتعد عملية احصاء تلك البقايا المتخلفة من المعتقدات والعادات مفتاحا لفهم الاستمرار في حدود التغير ، كما أنها تمثل من ناحية أخرى الحلقة التى تصل بين المراحل التطورية المختلفة .

فاذا غاص الباحث حتى أدنى المستويات الحضارية ، فإنه يصل الى المستوى الهمجى الأدنى للأجناس البشرية ، أى أنه يصل الى أصل الطقوس الانسانية والعادات والأفكار . فالحضارة معقدة كل التعقيد في حين أن الهمجية بسيطة نسبيا . كما أنها تعد بدون شك البؤرة التى نشأت عنها كل الحضارات عن طريق عملية التطور البطيء . ولهذا ينحتم على من يسعى الى فهم نتاج الحضارات المعتقد أن يبدأ من العناصر البسيطة ، أى أن يبدأ بفهم حياة البدائيين وسلوكهم .

على أنه على الرغم من اهتمام فريزر البالغ بنظرية تطور الجنس البشرى عن الأصول البدائية ، وعلى الرغم من محاولاته العلمية في ابراز تلك الأصول عند الأجناس البشرية ، فإنه لم يطور قط أية نظرية كاملة لأسس هذا التطور . فنحن لا نجد في أعماله أى تحديد

دقيق لتلك المفهومات التي رددتها وهي : اصول الجنس البشرى ، مراحل التطور ، البقايا المتخلفة . بل اننا لا نجد عنده أية محاولة تهىء له مجرد تصور عملية تطور الجنس البشرى أو تتيح لنا فرصة ادراك القوى الدافعة في سبيل هذا التطور .

وقد أدرك فريزر كما أدرك غيره أن أساس المعتقدات والعادات والتصورات ينبع من أنشطة الانسان الروحية والعقلية وهي السحر والدين والعلم . وليست هذه الجوانب ، من وجهة نظر فريزر ، متداخلة في حياة الانسان في كل زمان ومكان بحيث يؤدي كل منها دورا حيويا في حياته العملية والروحية ، ولكنها تعيش منفصلة مع الناس ، بحيث يؤدي كل منها دورا مهما في مراحل الحضارة المختلفة ، فالسحر يسيطر على حياة الانسان البدائي الهمجي كما كان يحلو لفريزر أن يسميه ، ذلك لأنه يعد الوسيلة الوحيدة التي يحاول الانسان البدائي عن طريقها اخضاع ظواهر الطبيعة لسيطرته . فلما أصبح الانسان بعد ذلك أكثر ذكاء ، أصبح أكثر وعيا بقدرته وخضوعه في الوقت نفسه للقوى العلوية التعسفية . ومن ثم فقد أخذ يسترضى تلك القوى عن طريق تأدية الشعائر والطقوس . وفي النهاية يصل الانسان الى مرحلة العلم ، وهي المرحلة التي يعيشها الانسان المتحضر اليوم . وهنا يبدى فريزر تشاؤمه ازاء مصير الانسان . ذلك أن العلم يعمل في هدوء وبلا هوادة على تحطيم عالمنا الذي يسبح فيه كوكبنا كذرة أو هباءة (١) .

ويرتكز السحر من وجهة نظر فريزر على أساسين : الأساس الأول هو ان الشبيه ينتج الشبيه ، والأساس الثانى هو ان الأشياء التي كانت ذات مرة متصلة ببعضها البعض ، يستمر تأثيرها في بعضها الآخر ، وان انقطعت الصلة الظاهرة بينهما . فهذان الأساسان يمثلان من وجهة نظر فريزر قوانين النظرة السحرية عند الانسان البدائي . وحلى

(1) Kardiner Bribble : They Studied Man p. 89.

الرغم من ان الانسان البدائى لم يعبر عن هذه القواطين بالكلمات ، بل انه لم يدركها ادراكا مجردا ، الا أنه كان يعتقد بكل بساطة ان طقوسه السحرية تنظم له احوال الطبيعة تنظيما مستقلا عن ارادته . وكلا الاساسين يندرجان تحت ما يسميه فريزر بسحر المشاركة : لأن كليهما يفترض أن الأشياء تؤثر في بعضها البعض وهى متباعدة عن طريق العلاقة السرية التى تصل بينهما بطريق ما .

ويمكننا ان نستدل بمثالين من كتاب الفولكلور فى العهد القديم يوضحان هذين الأساسين لمفهوم السحر عند البدائيين من وجهة نظر فريزر ، أما المثال الأول الذى يوضح نظرية : « الشبيه ينتج الشبيه » ، فهو يقع ضمن الأمثلة العديدة التى ساقها فريزر فى الفصل الأول من الباب الثانى ، وهو الفصل الذى يقع تحت عنوان « عهد ابراهيم » . وقد حاول فريزر فى هذا الفصل أن يستدل على أن الشعائر التى أداها ابراهيم لعقد عهد بينه وبين الرب : شبيهة كل الشبه بالشعائر التى تؤدبها الشعوب البدائية بقصد عقد بين طرفين ، فهم يذبحون ذبيحة ويشطرونها شطرين يمر بينهما الطرفان المتعاهدان فى الوقت الذى يتلو أحد الأفراد دعوات شريرة على من يحنث باليمين أو ينقض العهد ، وذلك بأن يكون مصيره كمصير الذبيحة المشطورة . غالبدائى بذلك يعتقد كل الاعتقاد أن شطر الذبيحة على هذا النحو ينتج عنه جزاء مشابه يحل بمن ينقض العهد أو يحنث باليمين .

وأما الأساس الثانى وهو استمرار تأثير الأشياء فى بعضها البعض رغم بعد الشقة بينهما ، فيتضح من خلال الأمثلة العديدة التى أتى بها فريزر فى فصل شمشون ودليلة وغيره من الفصول . ومثال ذلك أن البدائى يعتقد أنه فى وسعه أن يعزل روحه عن جسده ليحتفظ بها فى مكان آمن . فإذا حدث أن لحق ضرر بروحه ، فإن هذا الضرر يصيبه فى الحال على الرغم من انفصال روحه عن جسده . ونحن نلاحظ أن كلا المثالين يجتمعان مرة أخرى تحت مفهوم سحر المشاركة . فمصير الذبيحة ينتقل الى الحانث باليمين عن طريق سحر

المشاركة ، وبهذه الطريقة نفسها ينتقل الضرر من الروح الذى أصيب
بأذى الى صاحبه .

وإذا كان السحر وسيلة لاختضاع الظواهر الطبيعية لسيطرة
الانسان ، فان الدين ، من وجهة نظر فريزر ، ليس سوى عملية
استرضاء القوى العليا التى تتحكم فى مصير الانسان والظواهر
الطبيعية معا . ولقد حاول الانسان البدائى فى مرحلة حضارية أرقى من
المرحلة السحرية ، أن يحدد لنفسه تلك المفاهيم الكلية مثل القوة
والحياة والروح والاختصاص ، ولكنه عندما حاول ذلك ، خلط فى
التمييز بين الخصائص الانسانية وخصائص الطبيعة ، كما أنه شعر
بعجزه وعجز أدواته السحرية عن تفسير تلك الظواهر . ومن ثم فقد
افتترض العقل البدائى وجود آلهة أو سحرة علويين يعيشون فى عالم
غير مرئى ، ومن الممكن التوصل اليهم والتضرع لهم ، ليسدوا النقص
فى قدرات القوة السحرية .

وأما المرحلة الحضارية الثالثة وهى مرحلة العلم ، فهى تلك
المرحلة التى يعيشها الأوروبي اليوم بعد أن تجاوز مرحلتى السحر
والدين . وفريزر فى هذا لا يخفى تعصبه للجنس الأوروبي الذى يرى
أنه قد فاق بتطوره العلمى سائر الأجناس الأخرى .

وإذا نحن أمعنا النظر فى تحديد فريزر لهذه المفاهيم ، فأننا
نجد أن مذهبه التطورى قد فرض عليه هذا التقسيم التعسفى بين
السحر والدين والعلم ، كما سنشير الى ذلك بالتفصيل عندما نتعرض
للنقد الذى وجه لفريزر ازاء هذا التقسيم . على أننا أشرنا آنفا
الى أن فريزر لم يكن رجل نظريات ، ولم يكن يعد النظرية ، على حد
تعبيره ، سوى مشجب يعلق عليه كل الحقائق التى يجمعها ⁽¹⁾ . ولهذا
فان فريزر يصبح رجلا عمليا بمجرد أن يفرغ من مناقشاته النظرية ،

(1) Kardiner, Brehle : They Studied Man : p. 91.

ويدخل في مجال دراسة الشعوب • عند ذلك تتداخل عنده الظواهر المختلفة للحضارة الانسانية والاهتمامات البشرية ، كما أنه يصبح كاتباً ممتعاً ومشوقاً يستطيع بمقدرته على العرض والربط بين الظواهر المختلفة ، أن يتجول مع القارئ عبر صحراء استراليا وبين أحراش الأمازون وفي برارى آسيا ، ووسط طبيعة أفريقيا المتنوعة ، كما يجعله يعيش الشعوب المختلفة في أفكارها ومعتقداتها وعاداتها ، وذلك عندما يلقي الضوء على الشواهد المتراكمة بنظرة ثاقبة في الدوافع الانسانية • بل ان فريزر كثيراً ما كان يقترب من منهج التحليل النفسى للدوافع الشعورية واللاشعورية للسلوك البشرى ، وذلك على رغم مقتته لعلم النفس التحليلى مقتاً جعله يعزف عن قراءة كما ما كتبه فرويد بهذا الصدد • ويعد فريزر في مقدرته على تفسير الدوافع الانسانية من خلال الأفعال والشعائر ، وفي تأكيده أن الفعل أكثر ضماناً للبحث من الأقوال - يعد من أصحاب المدرسة السلوكية بالمعنى الاجتماعى لهذه الكلمة • ذلك أنه ينزع على الدوام الى توثيق التفسيرات النفسية بأشكال من لسلوك الانسانى ، وأنه كان ينظر الى الحقائق الأنثروبولوجية بوصفها جزءاً مكملًا للحياة الانسانية بصفة عامة ، وذلك في اطار الحضارة ، بل في اطار الطبيعة التى يعيش فيها الانسان •

وعلى الرغم من الجهد العلمى المخلص الذى بذله فريزر في دراساته التى ستظل تعيش بوصفها أعمالاً رائدة ، مهما جد عليها من أبحاث في مجال الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية ، وعلى الرغم من أنه فتح للباحثين من بعده آفاقاً جديدة واسعة في الأبحاث الانسانية بصفة عامة ، فإن فريزر لم يسلم من النقد والتجريح من قبل الباحثين في ميدانه ، فمنهم من ظلمه حقه ، وأنكر ما في أبحاثه من أصالة وما لها من أثر بعيد في الدراسات الانثروبولوجية الحديثة ، ومنهم من أسرف على النقيض من ذلك في تمجيده ، بحيث جعله البطل الذى مهد عن طريق نظرياته الأصيلة ، طريق التقييم العلمية الصائبة لمن بعده ، في

الوقت الذى جعل هذا البعض مالىنوفسكى نبيا مزيفا قاده الدراسات الأنثروبولوجية الى متاهات لا حدود لها (١) . وهناك نوع ثالث وعلى رأسهم مالىنوفسكى الذى نقده نقد العالم الموضوعى الحصيف ، فذكر فضله على الدارسين من بعده ، كما سبق أن أشرنا الى ذلك ، فى الوقت الذى تعرض لنقد نظرياته بخاصة نظريته السابق ذكرها فى السحر والدين والعلم . ويهمنى أن نسوق للقارىء هذا النقد حيث أنه يلقى مزيدا من الضوء على نظرية فريزر هذه التى تعد محور كثير من أعماله ان لم تعد محورها جميعا .

لقد كان مالىنوفسكى رائد المدرسة الوظيفية كما كان فريزر رائد المدرسة التطورية . وهذا الاختلاف الجوهرى فى اتجاه كل منهما فى مجال البحث ، دفع كثيرا من الباحثين لأن يقرنوا بين العالمين ، هذا فضلا عن أن هذا الاختلاف يشير بادىء بدء الى تباين وجهتى نظرهما فى تناول المشكلات الاجتماعية المتعددة . وفيما يختص بنظرية السحر والدين والعلم ، فقد عاب مالىنوفسكى على فريزر أنه لم يفرق بين هذه الأمور من حيث الدور النفسى والاجتماعى الذى لعبه كل منها فى الحياة الاجتماعية ، بل انه فرق بينها من حيث أنها تعد مراحل متعاقبة للسلوك البشرى وتفكيره . ولو أن فريزر فرق بين هذه الأمور الحيوية فى حياة الانسان لأدرك أنها تعيش معا بنسب متفاوتة فى كل زمان ومكان ، وأن كلا منها لعب دورا أساسيا فى حياة الانسان البدائى بحيث أنها جميعا شكلت حياته على نحو ما . فالانسان فى كل الظروف يمتلك معرفة من نوع ما ترتكز على أساس تجريبي وهو يستخدمها منطقيا . فأبسط وسائله التكنولوجية وطريقة إشعاله النار وتكييفه لوسائل معيشته تتطلب منه معرفة من نوع ما عن المادة وطريقة تشكيلها واستعمالها . أى أن المعرفة ، بل المعرفة العلمية بحق هى رائد الانسان على الدوام فى علاقته بالمحيط الذى يعيش فيه . ولا يمكن أن

(1) Current Anthropology : 1966, p. 560.

توجد حضارة من الحضارات أيا كان مستواها ، بدون هذه المعرفة •
وويترتب على هذا أن الشخص الذى لديه الخبرة العلمية والمقدرة على
السيطرة على الوسائل الفنية ، تكون له مكانة بارزة فى قومه •

والسحر بمعنى استخدام التعاويذ والطقوس فى سبيل الوصول الى
نتيجة ذات تأثير فعال فى حياة الناس ، بعد عاملا مساعدا للعلم والخبرة
التجريبية • فعندما تخون المعرفة العلمية الانسان البدائى ، فانه يتعامل
مع الطقس والمرض على سبيل المثال تعامللا سحريا • فالدافع النفسى
وراء ممارسة السحر اذن هو مقاومة المصير العثر وجلب المصير الخير •
وكما أن المعرفة الشعبية لأحوال الجو والظواهر الطبيعية بصفة عامة
تعد من مستلزمات الزعيم ، فان خبرته فى عالم السحر تعد لازمة أخرى
له • وهو يصبح زعيما فى هذه الحالة لا لأنه قادر على استخدام الوسائل
السحرية فحسب ، بل لأنه يقدم للجماعة ضمانا للخير ووسائل لتجنب
الشر ، وهكذا يرى مالينوفسكى أننا اذا شئنا أن نعدل مفهوم السحر
عما اصطلح عليه فريزر ، فاننا نقول : ان الدافع النفسى للسحر ليس
هو ترابط الأفكار التى ينجم عنها أن الشبيه ينتج الشبيه ، وأن العلاقة
التي تقوم بين الأشياء تستمر بينها على بعد الشقة بين بعضها البعض ،
وانما يتلخص هذا الدافع فى سعى الانسان وراء نتائج طيبة تعود بالخير
على الجميع (١) •

وعلى هذا النحو يختلف ما لينوفسكى عن فريزر فى مفهوم الدين •
فليس الدين مجرد استرضاء الانسان للقوى الالهية ، ولكنه احتياج
نفسى يرتبط بالقضايا الأساسية الوجود الانسانى • فاذا كان السحر
يختص بمشكلات تفصيلية نوعية محددة وحسية ، فان الدين يختص
بمشكلات كبرى مثل الموت والخلود • فهو ببنيته الدوجماتية نظام
للاعتماد الذى يحدد وضع الانسان بالنسبة للوجود ، والانسان يحل
مشكلاته الأبدية عن طريق الإيمان بالخلود وعن طريق مصالحته للآلهة •

(1) Malinowski : «A scientific Theory of Culture, pp. 198-199.

ومن هنا يختلف العلم والسحر والدين عن بعضها البعض من حيث التفكير
الذهنى والتنظيم الاجتماعى والظيفة • فالعلم يختص بالمعرفة والخبرة
الفنية ، والسحر حشد من الطقوس والأفعال والتعاويذ التى تجلب
المصير الخير للجماعة ، وأما الدين فيختص بالصلاة والشعائر وتقديم
التضحيات التى تربط الانسان بالقوى الآلهية وتعينه على استكناه
مصيره •

وهكذا نرى أن كلا من مالىنوفسكى الوظيفى وفريزر التطورى
يمثلان الضدين من حيث أن الأول يهتم بصلة هذه الجوانب الروحية
والفكرية بعضها ببعض ، فى حين أن الثانى يهتم بنشأتها بعيدا عن بعضها
البعض • كما أن مالىنوفسكى أمير ، كما رأى فريزر ، أن الاهتمام
بالسحر يمثل نقصا فى عقلية الانسان البدائى حيث أنه يعيش فى مرحلة
حضارية محددة وحيث أن كلا من السحر والدين والعلم يؤدى وظيفة
بدرجات متفاوتة مع الانسان فى جميع مستوياته الحضارية •

وهناك فرق آخر جوهري بين الباحثين ، وهو أن فريزر كان يعد
الطقوس بديلة للأسطورة والعكس صحيح ، فإذا ما عثر على أسطورة
استطاع أن يحدد عن طريقها بالطقوس البديلة لها • أما مالىنوفسكى
فقد كان يرتبط كل الارتباط بالشواهد المادية • حقا ان الأسطورة تعد
ميثاقا للسلوك الجماعى : فالعمليات الحضارية التى كرس جهده فى
البحث عنها عن طريق العمل الميدانى الذى يركز على الفروض النظرية،
تكون موضوعا لقوانين محددة • وهذه القوانين بدورها يهتدى اليها
الدارس عن طريق تحليله لوظيفة العناصر الأساسية من مجرد افتراضه
لتطور المراحل الحضارية عن طريق تعقبه للمخلفات الأثرية والاعتقادية •
فالباحث فى ميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية يتحتم عليه اذن أن يحل
العناصر الحضارية ويربط بين بعضها البعض ربطا وثيقا حتى يتمكن من
الاهتداء الى الدور الذى تلعبه هذه العناصر فى حياة الشعوب وفى بنيتها
الحضارية • ومن ثم فان مالىنوفسكى قد رحب ببعض نظريات فرويد
فى علم النفس التحليلى بوصفها وسيلة لفهم العلاقة الوظيفية بين

الفولكلور والتنظيم الاجتماعي ، ومثال ذلك نظرية فرويد في الكبت نتيجة الدوافع الاجتماعية . وقد وجد مالمينوفسكى أن هذه النظرية تيسر للباحث تفسير بعض الرغبات المحددة والعقد اللتين تشير إليهما المادة الفولكلورية ويؤكداهما التنظيم الاجتماعي . أى أنها تهىء للباحث فرصة اقتفاء أثر النماذج الغريزية والميول العاطفية داخل نسيج البنية الاجتماعية . وفي الوقت نفسه رفض مالمينوفسكى استخدام عقدة أوديب في تفسير البنية الاجتماعية للأسرة ، حيث أن الأسرة من وجهة نظره تكوين وظيفي يرتكر أولا وقبل كل شيء على بنية المجتمع وحضارته ^(١) . أما فريزر فلم يكن في الحقيقة يستعين بنظريات الباحثين ودراساتهم إلا في حدود امدادهم إياه بالمادة الأنثروبولوجية المدونة أو المروية .

وعلى الرغم من الاختلاف البين بين منهج كل من فريزر ومالمينوفسكى في أبحاثهما ، وعلى الرغم من تباين النتائج العلمية التي توصل إليها كل منهما ، فإن الجهد الذى بذله فريزر في دراساته مازال وسوف يظل يلعب دورا أساسيا في الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة . ولقد أقر مالمينوفسكى بهذا الفضل أكثر من مرة ، فقال من بين ما قاله : « لم أكد استمر في قراءتي في عمل فريزر العظيم » انغصن الذهبى « حتى وجدت نفسى منعصما في هذا العمل الرائع وواقعا في أسرهِ . بل اننى فرضت على نفسى منذئذ خدمة الدراسات الأنثروبولوجية » ^(٢) . كما قال عنه ك . س ماثور : « حقا ان عظمة فريزر لا تتمثل في نظرياته ، ولكنها تتمثل في غنى مادته وطريقة تحكمه فيها عبر مساحات شاسعة من كوكبنا وعبر عصور طويلة ، كما تتمثل في مقدرته على تصنيف مادته وتفسيرها » ^(٣) .

ويهمنا الآن أن نتبين من خلال عرضنا لكتاب « الفولكلور في العهد

(1) They Studied Man. p. 172.

(2) Current Anrhropology, 1966, p. 567.

القديم» (١) ودراسة مادته ، كيف حقق فريزر من ناحية ، منهجه التطوري ، حيث أنه يصرح في مقدمته بأن هذا هو هدفه من بحثه فيقول : « وقد حاولت في هذا الكتاب أن أسير على هدى الدراسات الفولكلورية متعقبا بعض معتقدات الاسرائيليين القدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعلمية في المراحل الأكثر قدما ونجاجة ، تلك التي تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التي تعيش حتى اليوم من عادات • وإذا كنت قد حققت أى قدر من النجاح في هذه المحاولة ، فانه سيكون من الممكن النظر في تاريخ بنى اسرائيل في ضوء أكثر صدقا ، وان يكن أقل رومانسية ، بوصفهم شعبا لا يميزه الوحي الالهى عن غيره من الشعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية ، وذلك عن طريق عملية انتخاب طبيعى بطيئة » •

ومن ناحية أخرى فافاننا نود أن ندرس نظرية فريزر في السحر والدين كما تتمثل في هذه الدراسة •

الفولكلور في العهد القديم :

ينقسم الكتاب بأجزائه الثلاثة الى أربعة أبواب كبيرة يندرج تحت كل منها عدة فصول « وهذه الأبواب هى على التوالى : عصور الحياة الأولى ، عصر الآباء والشيوخ ، عصر الملوك والقضاة ، القانون • ويتفق هذا القسم مع تطور تاريخ بنى اسرائيل الذى يبدأ ، شأنهم أى شعب آخر ، بآدم عليه السلام • أى أن المؤلف يبدأ بأول قصة في العهد القديم وهى قصة الخلق •

(١) صدر الكتاب في ثلاثة مجلدات كبيرة عام ١٩١٩ • وفي عام ١٩٢٢ اصدر المؤلف طبعة مختصرة له تكاد تحتوى على كل ابواب وفصول النسخة الاصلية المطولة • وليس هذا الكتاب سوى عمل واحد من أعمال فريزر العديدة التى ربما استغرق مجرد ذكرها بضع صفحات من هذا البحث •

أولا : عصور الحياة الأولى :

١ - قصة الخلق :

ملخص هذه القصة أن الرب ، وفقا لرواية الاصحاح الأول في سفر التكوين شرع في خلق كل الكائنات وفي نهاية الأمر خلق الرجل والمرأة من الطين ، أو انه وفقا لرواية الاصحاح الثاني من هذا السفر نفسه خلق الرجل ومن بعده سائر الكائنات وفي النهاية خلق المرأة من ضلع الرجل . ثم أسكن آدم وحواء في جناته وكفل لهما فيها الحياة الرغدة ، وسمح لهما أن يأكلا الثمار فيما عدا ثمار شجرة المعرفة ، ثم جاءت الحية الى حواء وأسرت اليها بأن الرب انما حرم عليهما أن يأكلا من ثمار هذه الشجرة حتى لا يكونا عارفين بالخير والشر . وكان هذا الاغراء كفيلا بأن يجعل يد حواء تمتد الى ثمار الشجرة لتأكل منها وتقدم منها لزوجها كذلك . ولم يكن الرب قد علم بما ارتكبه الأبولان من حماقة . وذات يوم عندما كان الرب يتمشى في جناته وجد آدم وحواء مختبئين خجلا بعد أن انكشفت لهما عورتهم اثر أكلهما من الشجرة فنادى عليهما وأسرع في طردهما من الجنة ، وذلك خوفا من أن يتهورا مرة أخرى ويأكلا من شجرة الحياة فيصبا خالدين مثله .

وقد استلقت نظر فريزر في هذه القصة مشكلات ثلاثة فتحت له باب المقارنة على مصراعيه بين هذه القصة وقصص الخلق التي رويت أو ترأل تروى بين الشعوب البدائية . وهذه المشكلات هي : أولا : خلق الانسان الأول من الطين . ثانيا الدور الذي لعبته الحية في صراع حواء ثالثا : حرمان الانسان من الخلود . أما من العنصر الأول فتأكد تتفق حكايات جميع شعوب العالم على أن الانسان الأول قد شكل من طين : فمن ذلك ما حكى « عن سكان استراليا السود الذين يسكنون ضواحي ملبورن أن « بندر - جل » الخالق قطع ثلاث شرائح من لحاء الشجر بسكينة الكبيرة ثم وضع بعض الطين على احدى هذه الشرائح وأخذ

يسويه بسكينة حتى صار قوامه معتدلا ، ثم وضع كمية أخرى من الطين على شريحة أخرى وشكلها على هيئة انسان فصنع الأقدام أول الأمر ثم الأرجل فالجذع فالأذرع فالرأس . وهكذا صور انسانا من الطين على كلتا الشريحتين من لحاء الشجر وعندما شعر بالارتياح لعمله هذا أخذ يرقص حولهما مبتهجا . وبعد ذلك أحضر خيوطا لحائية من شجر الكافور وصنع منها شعرا لصقته في رأسي رجليه المصنوعين من الطين . ثم نظر اليهما مرة أخرى تعبيراً عن سعادته وبعد ذلك استلقى فوقهما ونفخ أنفاسه بقوة في فم كل منهما وفي أنه وسرته . وفي الحال تصرعا وتكلما ونهضا مكتملي النمو » (١) .

وأما عن اقحام الحية نفسها في حياة أول رجل وأمرأة خلقهما الرب ، فهو يرجع من وجهة نظر فريزر الى اعتقاد الانسان البدائي في أن الحية كانت سبباً في حرمان الانسان الخلود بعد أن سلبت منه هذه المنحة الجليلة . وقد اعتقد الانسان البدائي في هذا الاعتقاد لأنه رأى أن الحية تغير جلدها في مواسم معينة ومن ثم فقد تصور أنها بذلك تجدد شبابها ولا تموت على الاطلاق . على أن الحية ليست هي الحيوان الماكر الوحيد الذي ربط بينه وبين الانسان البدائي وبين حرمانه الخلود ، فقد روت حكايات عديدة كيف أن القمر أرسل الأرنب أو الكلب أو السلحفاة لتبلغ الانسان أنه عندما يموت فسوف يحيا مرة أخرى تماماً كما يحدث للقمر الذي يصبح محاقاً ثم ما يلبث أن يولد هلالاً مرة أخرى . ولكن هذه الحيوانات كانت دائماً تغير من فحوى الرسالة وتبلغها خطأ للانسان . وبهذا كتب على الانسان الموت بسبب تبليغ هذه الحيوانات الرسالة الخاطئة اما عمداً أو غباء .

على أن حكاية التوراة لم تحك أن الانسان كان قد منح منحة الخلود ثم فقدها بسبب خداع الحية له . ولكن لما كان ذكر شجرة الخلود

(1) Folklore in the Old Testament, p. 4.

يعد غريبا عن الموضوع بخاصة اذا وضعناها جنبا الى جنب مع شجرة المعرفة ، فقد افترض المؤلف أن حكاية التوراة تعد رواية محرفة لرواية أخرى أصلية حكّت عن شجرتين في الجنة حرمتا على الانسان وهما شجرة الفناء وشجرة انحية • وقد افترض المؤلف كذلك أن الرب الذي كان رحيمًا كل الرحمة بالانسان فأسكنه جناته وأنعم عليه من كل خير ، أمر الانسان ألا يأكل من شجرة الفناء وأن يأكل من شجرة الحياة ثم جاءت الحية الماكرة التي شاعت أن تحرم الانسان من الخلود ، وأضلت الانسان حتى أكل من شجرة الفناء وبذلك حرم الخلود وأصبح من الفانين •

— فإذا صححت الرواية على هذا النحو ، ولا بد لها من ذلك حتى يكون هناك تناسق بين مغزى الشجرتين المعنيتين من ناحية ، وحتى لا تتسبب الى الرب صفة الأنانية التي نسبتها اليه التوراة عندما صورته حريصا على الاستئثار بالمعرفة والخلود لنفسه (١) — فإن الحكاية تكون شبيهة كل الشبه بحكايات البدائيين التي روت عن خلق الانسان من الطين وعن اكتسابه الخلود ثم حرمانه هذه المنحة نتيجة خداع حيوان من الحيوانات الماكرة له •

٢ — علامة قابيل : وبعد أن هبط آدم وحواء الى الأرض أنجبا قابيل وهابيل • « وكان هابيل راعيا للمغنم وكان قايين عاملا في الأرض • وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من ثمار الأرض قربانا للرب ، وقدم قابيل من أبقار غنمه ومن سمانها • فنظر الرب الى هابيل وقربانه ، ولكن الى قايين وقربانه لم ينظر • فاغتاظ قايين جدا وسقط وجهه •

(١) « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا بالخير والشر والان لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الابد • فاحرجه الرب من جنة عدن يعمل الأرض التي أخذ منها • فطرد الانسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبريم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » • سفر التكوين ٣ : ٢٢ الى ٢٤ •

فقال الرب لقايين : لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك • ان أحسنت أفلا رفع وان لم تحسن فعند الباب خطية رابضة واليك اشتياقها وأنت تسود عليها • وكلم قايين هابيل أخاه وحدث اد كانا في الحقل أن قايين قام على أخيه وقتله • فقال الرب لقايين : أين هابيل أخوك • فقال لا أعلم ، أحارس لأخى • فقال ماذا فعلت صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض ، فالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت غاها لتقبل دم أخيك من يدك • متى عملت الأرض لاتعود تعطيك قوتها تائها وهاربا تكون فى الأرض • فقال قايين للرب : ذنبى أعظم من أن يحتمل ، أنك قد طردتني اليوم من وجه الأرض ومن وجهك أختفى وأكون تائها وهاربا من الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى • فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه • وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده » (١) •

وعندما قرأ فريزر هذه القصة قراءة العالم الفاحص ، لاحظ مايلى : أولا : أنه على الرغم ، من أن قابيل قتل أخاه هابيل ، فان الرب حكم بأن من يقتل قابيل ينتقم منه سبعة أضعاف • **ثانيا** : أنه يبدو أن الأرض كانت تعج بالناس بحيث أن قابيل كان يخشى من يتعقبه ويأخذ منه بالثار ، والواقع أن الأرض ، وفقا للروايات الدينية ، لم يكن يعمرها آنذاك سوى آدم وأبنائه • **ثالثا** : استلقت نظر المؤلف بصفة خاصة قول « الرب : صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض • فالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت غاها لتقبل دم أخيك من يدك • متى عملت الأرض لاتعود تعطيك قوتها • » ومن ثم فقد تساءل المؤلف عن علاقة الأرض بفعل الآثم ، بحيث أنه لو عاد وأفلحها ، فانها لن تقدم له ثمارها اليانعة • **رابعا** : ان الرب جعل ثقابيل علامة ما لكى لا يقتله كل من وجده • وأمام هذه المشكلات التى أثارتها الحكاية وقف المؤلف يحل رموزها بأسلوبه المتدفق واستقصائه البالغ فى تقصى التراث الشعبى

(١) سفر التكوين ٤ : من ٢ : ١٥ •

البدائي • وقد بدأ تساؤله عن كنه هذه العلامة التي علم بها الرب قايين وسبب تعليمه إياه بها ، لأنه رأى أن فهم مغزى هذه العلامة يعد مفتاحا لفهم سائر النقاط التي أثارها •

لقد كانت الشعوب البدائية وشعوب الحضارات تنفي القاتل وتحرم عليه أن يطيأ أرض بلده إلا بعد القيام بأجرات طقوس وشعائر محددة كما هو واضح في قانون أتينا ، وذلك خوفا من أن تصاب الأرض بالدنس أو على الأقل تصاب بالجدب • ويؤيد هذا قصة « أخاميون » الاغريقية • فقد ظل « أخاميون » القاتل لأمه ، شريدا هائما على وجهه • وكان كلما وطئت قدمه أرضا لفظته هذه الأرض • حتى لجأ في نهاية الأمر إلى نبوءة دلفي يلتمس عندها العون • وأخبرته النبوءة أن الأرض الوحيدة التي لن تشقى بمأساته هي الأرض التي لم يكن البحر قد انحسر عنهما وقت ارتكابه جريمته • فاستمر الأخميون في تجواله حتى عثر على هذه الأرض • ولكنه ما كاد يطيأها بقدمه حتى لفظته هذه الأرض كذلك • وهكذا ظل الأخميون هائما على وجهه طوال حياته • وهنا يتساءل الكاتب عما إذا كانت العلامة التي علم بها قابيل إشارة إلى إثمه حتى يتجنبه الناس خوفا من أن يصابوا بعدوى هذا الجرم ؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك ، كما تشير إلى ذلك معتقدات بعض الشعوب القديمة ، فإن هذا يتناقض مع السبب الذي من أجله علم الرب قابيل ، إذ من الواضح من القصة التوراتية أن الرب علمه لكي لا يقتله كل من وجده • فإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من البحث عن مغزى آخر لهذه العلامة • وهنا يتجول بنا المؤلف مرة أخرى مع الشعوب البدائية لعلنا نهتدي إلى تفسير آخر لهذه العادة • ولا بد أن يكون التفسير في هذه الحالة في صالح القاتل ، حيث أن الرب نفسه قد أصدر حكما في صالح قابيل القاتل • وقد انتهى فريزر من خلال المقارنات ، إلى أن هذه العلامة لا بد أنه كان يقصد بها إبداء قابيل في مظهر متكرر لشبح العلامة لا بد أنه كان يقصد بها إيذاء قابيل في مظهر متكرر لشبح يقول في خاتمة بحثه : « ويمكننا أن نفترض على نحو هذا (أى على

نحو ما تفعل بعض القبائل البدائية) أن قابيل قد هداً روعه بعد أن علمه الرب بعلامة معتقداً بذلك أن شبح أخيه الذي قتله لن يتعرف عليه ويضايقه . على أنه ليست لدينا وسيلة لأن نعرف بها على وجه التحديد شكل العلامة التي علم بها أول قاتل على وجه الأرض . ومن ثم لا يمكننا سوى أن نطرح فرضاً عفوياً حول هذا الموضوع . فإذا كان من حقنا أن نحكم على هذه العلامة . مستعينين بعبادات البدائيين المشابهة لذلك في الوقت الحاضر ، فإن الرب يكون بذلك قد علم قابيل بعلامة حمراء أو بيضاء أو سوداء ، وربما مزج بين هذه الألوان ليكون منها لونا مناسباً فعلمه به ، وربما لون جسمه كله بلون أحمر كما يفعل « الفيجانيون » على سبيل المثال وربما لونه بلون أبيض كما يفعل « النجونيون » أو بلون أسود كما يفعل الأرونتانيون ، وربما لون نصف جسمه باللون الأحمر ونصفه الآخر باللون الأبيض كما يفعل « المساي » والنانديون^(١) .

ولم يشأ فريزر أن ينتهي من هذا الفصل قبل أن يبدي سخريته مما تضمنته التوراة من سخافات فقال : « ان تفسير علامة قابيل على هذا النحو من شأنه أن يخلص القصة التوراتية من السخف الواضح فيها ، فإن تفسير العلامة بأن الرب قد علم قابيل بها لكي يحول بينه وبين أن يقتل على يد أى إنسان آخر فيه انفعال لحقيقة أنه لم يكن هناك على وجه الأرض من يقتله ، حيث أن الأرض لم يكن يعمرها آنذاك سوى القاتل وولديه . أما اذا تبيننا التفسير الذى مؤداه أن العدو الذى كان يخشاه القاتل هو شبح إنسان حى ، فإننا نتجنب بذلك التهاون التوقح المائل فى اتهام الرب بزلة فى ذاكرته . الأمر الذى لا يتلاءم مع صفات الرب العالم بكل شئ »^(٢) ثم يقول مزهوا بمنهجه المقارن : « ومن ثم يؤكد المنهج المقارن مرة أخرى أنه دفاع قوى فى حق الرب »^(٣) .

٣ - الطوفان الكبير : وقد روت كل شعوب العالم على وجه التقريب

(١) الفولكلور فى العهد القديم ص ٤٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٥ .

(٣) نفس المرجع ص ٤٥ .

قصصا عن الطوفان الكبير الذى أغرق الأرض ومن عليها فيما عدا رجلا واحدا . وربما كانت أقدم قصة من هذا النوع ، تلك القصة البابلية التى وردت ضمن ألواح ملحمة جلجامش الشهيرة . ومن المحتمل كل الاحتمال أن هذه القصة كانت مستقلة بادية الأمر ، ثم أدمجت ضمن حوادث الملحمة وتعد هذه القصة وغيرها من القصص التى روت عن حوادث انفيضانات ، صدى لحوادث طبيعية غمرت فيها الأنهار الأرض أو حدث صدع فى صخور كانت تعد بمثابة خزان طبيعى ، فتدفقت المياه أثر ذلك كما حدث عندما تدفقت مياه البحر الأسود فى البحر الأبيض محطمة السدود الصخرية التى كانت تفصلهما تماما عن بعضها البعض ، كما يؤكد علماء الجيولوجيا . وبناء على ذلك فربما انتقلت قصة طوفان نوح التى وردت فى الكتب السماوية والتى ربما حدثت فى بلاد بابل ، حيث أن الحوادث الطبيعية من هذا النوع كانت مألوفا فى هذه المنطقة ، الى بلاد أخرى فحكّت عنها ثم أطلقت على البطل الذى خاض هذا الطوفان اسما محليا . على أن هذا لا ينفى أن هناك قصصا أخرى نشأت مستقلة فى أنحاء أخرى من بلاد العالم وأن هذه القصص قد تأثرت بقصة الطوفان التى رواها المبشرون بشكل أو بآخر ، ذلك أن هذه القصص تكاد تتفق جميعا مع القصة الدينية فى عناصرها الأساسية وهى حدوث طوفان كبير أغرق الأرض ومن عليها فيما عدا رجلا واحدا أو رجلا وزوجته . ثانيا : نجاة هذا الشخص فى فلك أو على رمت بعد أن جمع معه صنوفاً شتى من الطيور والحيوانات ومن الحبوب حتى يتمكن من تعمير الأرض بعد أن ينتهى الطوفان . ثالثا : محاولة هذا الشخص استكشاف أحوال الأرض بعد انتهاء الطوفان عن طريق إطلاق طير حمل اليه قطعة من طين الأرض اليابسة أو غرعا من غروع الشجر .

وعلى الرغم من أن فصل الطوفان الكبير قد استغرق حيزا كبيرا من كتاب غريزر ، إذ أنه يقع فيما بين ص ١٠٤ و ص ٣٦٠ من الجزء الأول

من الكتاب الأصلي ، الا أن هذا الفصل لا يدخل ، ومن وجهة نظرنا ، ضمن أبحاث الكتاب الأساسية التي تتركز حول دراسة أشكال العبادات وطقوس السحر دراسة مقارنة بين العبرين القدماء والشعوب البدائية .
حقا أن فريزر ملتزم في هذا الفصل كذلك بمنهجه المقارن ، الا أنه يقارن فيه بين قصص مختلفة رويت فيما يبدو ازاء حوادث طبيعية معينة .

٤ - برج بابل : من بين المسائل الشائكة التي تتصل بالبحث في أصل الجنس البشرى ، مسألة اللغة أو بالأحرى اللغات المختلفة التي تحدثت بها أجناس البشر منذ الأزل . فكيف تعددت هذه اللغات واختلفت كل الاختلاف بعد أن كان الجنس البشرى كلا واحدا يعيش في بقعة واحدة من الأرض ؟ هذه المسألة جذبت بطبيعة الحال أنظار العبرين القدماء وشسروها على النحو التالى :

كان الجنس البشرى بأسره يتحدث لغة واحدة في بداية الحياة . ثم انتقل هؤلاء الناس بوصفهم بدوا ، على هيئة قافلة واحدة كبيرة من جهة الشرق حتى وصلوا الى سهول شنعار الفسيحة : أو الى أرض بابل ، وهناك حطوا رحالهم وابتنوا مساكنهم من الطوب بعد أن ألصقوا بعضه ببعض الآخر بملاط من الطين . على أنهم لم يكتفوا ببناء مدينة ، وانما رأوا أن يشيدوا برجاً عاليا يصل الى عنان السماء من نفس المواد التي بنوا بها مساكنهم . والسبب الذى دفعهم لبناء هذا البرج هو أن يكون البرج علامة لهم من ناحية ، وحتى لا يتفرق الناس على وجه الأرض من ناحية أخرى ، ذلك أنه اذا تجول أحدهم خارج المدينة وضل طريقه فى السهول المترامية ، فانه ينظر الى الورا غربا ، فيرى من بعيد هذا البرج وهو يقف مظلما وقد انعكست عليه أضواء سماء المساء البراقة . أو أنه ينظر شرقا فيبصر قمة البرج وقد انعكست عليه بقايا أشعة شمس الغروب . وعند ذاك يبتك طريقه مسترشدا بهذا المعلم حتى يصل الى بيته . وقد كانت هذه الخطة سليمة لولا أنهم لم

يكونوا قد وضعوا في حسابهم قوة الرب وغضبه عليهم • فبينما كانوا يشيدون
البرج بقواهم وسواعدهم الفتية ، هبط الرب من السماء ليبيصر المدينة
والبرج الذي كان الناس يعملون به في سرعة فائقة • فسأه هذا المنظر
وقال لهم : « هاهم أولاء شعب وأحد له لسان واحد ، وهذا ما شرعوا
في عمله ، ولن يمنعهم شيء من تحقيق غرضهم » ^(١) ويبدو أن الرب
كان يخشى أنه عندما يكتمل بناء البرج ويصل الى عنان السماء يتسلقه
الناس ويقضون مضجعه وهو الأمر الذي لم يفكر فيه الناس • ولذلك
فقد عزم الرب على أن يقضى على هذه الخطة في مهدها ، وقال لنفسه
أو لجمعه السماوى « لنهبط الى الأرض ونبلبل لغتهم حتى لا يفهم
بعضهم بعضا » ^(٢) وعند ذاك هبط الرب وبلبل لغتهم وفرقهم على
وجه الأرض • ومن ثم فقد كف الناس عن بناء المدينة والبرج • وقد
أطلق على هذا المكان اسم بابل ومعناه الببلية لأن الرب قد بلبل فيه
لغات الناس جميعا • وقد روت القبائل الافريقية وقبائل المكسيك وبورما
بل والاغريق القدماء حكايات شبيهة بتلك الحكاية ، وكان الغرض من
بناء البرج اما قتل الاله الذى كان يسكن معهم فى الأرض ذات يوم
ثم غضب من الناس وصعد الى ملكوته السماوى ، أو رؤية القمر على
حقيقته • وقد كانت النتيجة واحدة فى كل هذه الحكايات وهى سقوط
البرج وقتل الناس الذين حاولوا تسلقه وبلبله ألسنة الناس جميعا
وتفرقهم فى بقاع الأرض • والى هنا ينتهى المجلد الأول من الترجمة ،
أما المجلد الثانى فيشتمل على الجزأين التاليتين :

أولا : عصر الشيوخ والآباء :

١ — عهد ابراهيم : يبدأ هذا العصر بأبى الأنبياء ابراهيم عليه
السلام • وتحكى التوراة ان ابراهيم خرج من أرض بابل الى أرض
كنعان • وهناك ظهر الرب وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور

(١) سفر التكوين ١١ : ٦ .

(٢) سفر التكوين ١١ : ٨ .

الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها • فقال أيها السيد الرب بماذا أعلم
انى أرثها • فقال له خذ عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة
وحمامة ، فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط ، وجعل شق كل واحد مقابل
صاحبه • وأما الطير فلم يشقه فنزلت الجوارح على الجثث وكان أبرام
يزجرها • ولما صارت الشمس الى المغرب وقع على ابرام سبات واذا
رغبة مظلمة عظيمة واقعة عليه • فقال لابرام أعلم يقينا أن نسلك سيكون
غريبا في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم فيذلونهم أربعمئة سنة •
ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينها • وبعد ذلك يخرجون بأمالك
جزيلة ••• ثم غابت الشمس فصارت العتمة واذا تنور دخان ومصباح
نار يجوز بين تلك القطع • فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام
ميثاقا « (١) »

فهذه القصة تحكى عن ميثاق عتد بين ابراهيم والرب ومن ثم فقد
سمى فريزر هذا الفصل « عهد ابراهيم » • ومن الواضح أن
العهد قد تم بين ابراهيم والرب بعد أن أدى ابراهيم طقوسا معينة بناء
على أمر الرب ، وهى القيام بذبح تلك الطيور التى ذكرها الرب وشطرها
ثم وضع شطرى كل حيوان فى مقابل بعضهما بعضا • وعندما مر الرب
بين هذه القطع كان هذا تأكيدا للعهد الذى قطعه الرب مع ابراهيم
على أن تكون الأرض التى رحل اليها له ولنسله من بعده •

ومن الطبيعى أن تختلف هذه الشعيرة التى أداها ابراهيم فى سبيل
اتمام هذا العهد بينه وبين الرب ، نظر العلامة فريزر الذى قضى عمره
فى دراسة شعائر البدائيين وطقوسهم ، فراح يقارنها بشعائر البدائيين
لاستخلاص مغزاها وهدفها • وقد انتهى فريزر ، بعد استقصاء بالغ
لتلك الشعيرة ، الى أنها تفسر من خلال نظريتين . النظرية الأولى هى
نظرية الجزاء والنظرية الثانية هى نظرية التطهير أو الوفاء • أما النظرية

(١) تكوين ١٥ : ٧ الى ١٨ •

الأولى فتدعمها تلك العادة التي كانت تتبع في جزيرة نياس عند عقد عهد بين طرفين أو عندما كان يقسم الطرفان على أمر ما . وفي هذه الحالة يجز الطرفان رقبة خنزير رضيع بينما يدعو كل طرف على نفسه بأن يصاب بمثل هذه القتلة اذا ما نقض العهد أو حث باليمين . وأما النظرية الثانية فيؤكدها ما يقوم به عرب موآب عندما ينتابهم القحط أو الوباء . عند ذلك يقف الشيخ وسط الخيمة ويهتف قائلا : « افتدوا أنفسكم أيها الناس ، افتدوا أنفسكم » عندئذ تأخذ كل أسرة شاة وتضحى بها ثم تشطرها شطرين تعلقهما أسفل الخيمة أو على عامودين أمام الخيمة . ثم يمر أعضاء الأسرة جميعا بين شطري الضحية اعتقادا منهم أن شطري الضحية لهما القدرة السحرية على طرد شبح الوباء أو الكارثة . ومعنى هذا أن الناس ينظرون الى الكارثة أو الوباء بوصفه شخصا شريرا يشهر سيفه ويأتى على كل ما يقابله . فاذا اعترضت الضحية طريقه كالأسد الرابض نشب صراع مفرع بينهما ينتهى بقهر هذا الكائن الشرير بينما تظل الضحية المنتظرة مسيطرة . فالتفسير التطهيري أو الوقائي يتلاءم مع هذا المثال ، في حين ينتفى عنه التفسير الجزائي . إذ ليس من المعقول أن يتسبب قتل الشاة في موت الناس الذين يمرون بين أجزائها . بل ان الناس يعتقدون ، على عكس هذا ، أن الضحية تحميهم من الشر الذى يتهدد حياتهم بشكل أو بآخر . وفي ضوء هذين التفسيرين حاول فريزر أن يفسر مغزى الشعيرة العبرية . وقد رأى أنه من الأوفق تفسيرها من خلال النظرية الوقائية عن أن نفسرها من خلال النظرية الجزائية . ولكنه في الوقت نفسه أخذ يتساءل عن صلة هذه الشعيرة بفكرة التطهير أو الوقاء . وفي هذا يتبنى فريزر وجهة نظر روبرتسون سميث فيما سماه « بالسر المقدس » لهذه الشعيرة . ويفترض روبرتسون بناء على هذه النظرية أن الذين يمرون بين أجزاء الضحية أو يقفون فوقها ، يتحدثون مع الحيوان ومع بعضهم بعضا في رابطة الدم . أى أن هذا العهد ليس سوى شكل آخر لعادة تنتشر حتى اليوم على نطاق واسع تعرف بعهد الدم .

والمتعاهدون ، وفقاً لهذه العادة يمزجون قدراً من دمائهم بعضاً ببعض ، وبذلك ينشأ فيما بينهم نوع من القرابة العصبية الوثيقة • على أن غريزر المدقق لم يتبين نظرية روبرتسون سميت بطريقة عمياء ، وإنما رأى أن تفسير الشعيرة العبرية ينبغي أن يجمع بين نظريتي الجزاء والوقاية معاً • فحسب الذبيحة إلى شطرين يرمز إلى مصير الحادث بالعهد ، كما أن مرور المتعاهدين بين شطري الذبيحة يفسر من خلال النظرية الوقائية أو نظرية السر المقدس • فكلتا النظريتين ، من وجهة نظره ، تكمل أحدهما الأخرى ، كما أنهما معاً تقدمان تفسيراً متكاملًا لهذه الشعيرة •

على أننا نرى أن الشعيرة العبرية لا يمكن أن تفسر إلا من خلال نظرية السر المقدس على نحو ما شرحها روبرتسون سميث فيكون مغزها عندئذ هو عقد أو أصر الرباط المقدس بين إبراهيم والرب أثر هذا الميثاق الذي عقده الرب معه • إذ ليس من المعقول أن تفسر الشعيرة أو بالأحرى يفسر جزء منها بالنظرية الجزائية التي يلقي الرب وفقاً لها جزاءً مشابهاً بمصير الضحية إذا ما حنث بالعهد الذي قطعه على إبراهيم •

٢ - آرث يعقوب أو نظام وراثته الأبن الأصغر :

ويستمر غريزر مع التوراه في تعقب تاريخ بنى إسرائيل • ولكنه ترك اسحق جانبا ليفرغ لعرض حياة يعقوب الحافلة بالمغامرات التي لم تخل من معتقدات وطقوس بدائية ظلت عالقة بها •

وقد بدأ غريزر هذا الفصل بتصوير شخصية يعقوب كما تتمثل في التوراه • ولا بد أن الكاتب اليهودي قد أبرز من خصال يعقوب ما هو محبب إلى نفسه وإلى قومه • ذلك أن يعقوب في التوراه يعد « مثالا للتاجر السامي اللين المدقق الوافر الحيلة الذي يحرص على الكسب وعلى أن يتم صفقاته لا بالقوة بل بالحقق دون أن يتردد كثيراً

في اختيار الوسائل التي يبرز بها مناهسيه ويتفوق عليهم » (٢٣) • ومن ثم فقد خلت شخصية يعقوب في التوراة من كل من الوغار الذي انتسب به جده ابراهيم • والمورع التأملى الذي اتصف به اسحق • وقد عكف فريزر على حادثتين في حياة يعقوب لم يتردد فيهما في استخدام كل أساليب المكر والخداع في سبيل الحصول على مكسب شخصى • مون حسن الحظ أن هاتين الحادثتين الشائقتين اشتملتا على نماذج من الطقوس والمعتقدات البدائية التي عنى فريزر بأبرازها من خلال حكايات التوراة • أما الحادثة الأولى فهي حادثة خداع يعقوب لأخيه الاكبر عيسى لكى يسلب منه حقه في الارث وفي بركة أبيه ، وأما الحادثة الثانية فهي حادثة خداعه لخاله لابان بعد أن تزوج من ابنتيه ، وقضى معها زمنا طويلا • وبين الحادثتين هناك حوادث أخرى لم يتركها المؤلف عابرا ، وانما حاول كذلك أن يستخلص ما فيها من معتقدات وعادات بدائية •

وقد عمد يعقوب الى الحيلة التالية التي تحكيها التوراة في سبيل خداع أخيه لقد جاء الى أبيه الكفيف اسحق مصطنعا ملمس أخيه عيسو ، بأن ارتدى جلد نعجة ، ومصطنعا صوته ، وادعى لأبيه أنه عيسو وأنه جاءه ليخلع عليه البركة • فباركه أبوه ، وبذلك سلب حق أخيه في البركة • أما سائر حق عيسى في الارث فقد اشتراه منه مقابل أكلة من الثريد عندما كان عيسو يعانى آلام الجوع • وهنا يتساءل فريزر عما اذا كان سلوك يعقوب على هذا النحو حقا بدافع خداع أخيه وأبيه ، أم أن عادة الابن الأصغر في الارث كانت ما تزال تتبع فعلا في هذا الوقت ثم تغيرت فيما بعد الى عادة حق الابن الأكبر في الارث في زمن كتابة سفر التكوين ، ومن ثم فقد غسر كاتب السفر خلع اسحق البركة على ابنه يعقوب على أنه من قبيل خداع يعقوب لأخيه وأبيه ؟

(٢٢) الفولكلور في العهد القديم : ص ١٧٢ •

هذا هو موضوع هذا الفصل • ومن ثم فقد استطرده فريزر في ذكر تفاصيل عادة حق ارث الابن الأصغر ، فساق الشواهد العديدة عليها • فقد كانت العادة المتبعة في الأسر القديمة التي كانت تعيش في ظل النظام الرعوى أو الزراعى المتنقل ، أن يهجر الأبْن الأكبر أبويه بحثاً عن حياة رعوية أو زراعية مستقلة ، كما كان اخوته يفعلون فعله عندما يكبرون بحيث لا يبقى في بيت الوالدين سوى الأبْن الأصغر الذى يكلف برعاية والديه وأخوته • ومن الطبيعى بعد ذلك أن يكون لهذا الأبْن الأصغر حق ارث مسكن والديه كذلك أدوات البيت والأرض الى غير ذلك • ومما ساعد على ممارسة هذه العادة كثرة الأراضى وقلة السكان • فلما استقرت الأسر فيما بعد ولم يعد هناك مزيد من الأراضى الشاسعة ، انتقل هذا الحق الى الابن الأكبر • ولم تكن عادة حق ارث الابن الأصغر متبعة بين القبائل البدائية فحسب ، كما لاحظ ذلك فريزر ، وانما كانت نظاما منتشرا في كثير من بقاع العالم ومنها إنجلترا وفرنسا •

وحيث أن يعقوب كان من وجهة نظر فريزر ، صاحب الحق الشرعى في ارث أبويه ، وهو الأمر الذى غفل عنه كاتب سفر التكوين ، حيث أن هذه العادة كانت قد تغيرت في عصره ، فان ارتداء يعقوب جلد النعجة لم يكن بناء على ذلك ، بدافع اصطناع ملمس أخيه لخداع أبويه ، ومن ثم فانه ينبغى أن يفسر هذا التصرف تفسيرا مقنعا آخر • وقد توصل فريزر ، من خلال المنهج المقارن الى أن هذه العادة كانت تتبع في مناسبات حيوية متعددة منها الميلاد والتبني والمرض والختان • فاذا كانت مناسبة من هذه المناسبات ، بقرت نعجه ، ووضع المريض أو الصبى أو الطفل أو المريض بداخلها • وقد تتبع هذه العادة بشكل آخر وهو لف الصبى أو الطفل أو المريض بشرائح من جلد النعجة بعد ذبحها. وتفسير هذه العادة هو أن الشخص الذى يوضع في بطن النعجة أو يرتدى جلدها يطابق بين شخصه والحيوان الضحية الذى

يكون بمثابة الحاجز بينه وبين ايداء القوى الشريرة المتربصة به في هذه المناسبات بصفة خاصة . ومن ثم فان القوى الشريرة توجه أذاها الى انحيوان بدلا من الشخص .

وأحيانا كانت هذه العادة تتبع في مناسبة أخرى يطلق عليها الميلاد الجديد . وهذا الميلاد الجديد يكون في حالة التبنى أو رفع شخص الى مرتبة أسمى من مرتبته الاجتماعية ، أو في حالة ما اذا عاد شخص الى قومه بعد غيبة طويلة ، بحيث أنهم عدوه من الأموات . وفي هذه الحالة يوضع الشخص في تجويف نعجة ويصطنع صراخ الطفل وكأنه يولد من جديد . وهكذا ينتهي فريرز من هذا الفصل بالنتيجة التالية فيقول : « فاذا عدنا من النقطة التي بدأنا منها فاننا نذكر على سبيل الافتراض أن حكاية الخديعة التي ارتكبها يعقوب مع أبيه أسحق تتضمن بقايا احتفال شرعى هو احتفال الميلاد الجديد من عنزة ، الذي كان الناس يرون ضرورة اتباعه أو يرغبون في اتباعه عندما يفضل الأبن الأصغر في الحقوق على حساب أخيه الأكبر الذي مازال على قيد الحياة ، تماما كما يتظاهر الرجل الهندي في أيامنا هذه بأنه يولد من جديد من بقرة ، وذلك اذا شاء أن يسمو الى مستوى اجتماعى أعلى من مستواه أو أن يعود الى قومه الذين خسرهم اما نتيجة حظه العثر أو بسبب سوء سلوكه . وربما بسط هذا الاحتفال الغريب عند العبرين كما بسط عند الأكيكوير ، فأصبح يمثّل في ذبح عنزة ووضع قطع من جلدها على الشخص الذي يعتقد بذلك أنه يولد من عنزة مرة أخرى . فاذا كان افتراضى هذا صحيحا ، فان كاتب قصة يعقوب في سفر التكوين يكون بذلك قد دون هذه الشعيرة القديمة ، وان كان قد أساء فهمها في الوقت نفسه » (١) .

ثم رحل يعقوب الى حران موطن خاله لابان ، وذلك بناء على نصيحة أمه . أما السبب الذي يعزوه المصدر اليهودى لذلك ، فهو خوف

(١) الفولكلور في العهد القديم ص ٢٢٣ .

الأم على ابنها يعقوب من غضب أخيه عيسو . وأما المصدر الكهنوتي فيفسر ذلك بأن الأم لم تتسأ لابنها أن يتزوج من بنات الكنعانيين الذين كان العبريون يعدونهم كفرة فارسلته الى خاله ليتزوج من إحدى بناته . ومهما يكن سبب رحيل يعقوب الى حران ، فإنه اتخذ طريقه الى هناك عبر الجبال والصخور والفيافي الشاسعة فلما جن عليه الليل وكان يسير فوق جبل ، استلقى على الأرض ووضع رأسه على صخرة وراح في نوم عميق . فرأى في رؤياه سلما منتصبا يصل بين السماء والأرض والملائكة صاعدة هابطة عليه . ثم سمع صوت الرب يباركه ويعدده بأن هذه الأرض ستكون له ولأبنائه من بعده . فلما استيقظ يعقوب مسح الحجر الذي اتخذته وسادة له وأطلق على المكان اسم « بيت ايل » أى بيت الرب . ومنذئذ أصبح هذا الحجر مقدسا لدى العبريين القدماء . ويعلق فريزر على هذه الحادثة بانها حكاية لفقها العبريون القدماء ليبرروا بها حلمهم القديم في امتلاك هذه الأرض ليصبحوطنا قوميا لهم . ذلك أن هذا المكان بعينه كان الكنعانيون ، سكان البلاد الأصليون يعبدون آلهتهم عنده . ومهما يكن مصدر هذه الحكاية فإنها تخفى بين سطورها بقايا عبارات ومعتقدات قديمة . وهنا يسوق فريزر المقرآن الذى تشير الى اعتقاد بعض الشعوب فى أن لجوءهم الى بعض الأمكنة المقدسة ونومهم فى ساحتها ، يساعدهم على ظهور الآله لهم فى رؤياهم فينتسنى لهم عند ذاك أن يسألونها عما يعن لهم من أمور . أو يطلبون منها الشفاء من مرضهم . كما كان الناس فى الزمن القديم يتصورون أن أرواح الموتى تصعد من الأرض الى السماء عن طريق سلم . بل أن بعض الشعوب كان يضع سلما صغيرا فى القبور لكى يسهلوا على الأرواح عملية الصعود الى مأواها . ولم تكن فكرة عبادة الحجر الذى يسكنه الرب غريبة على الاسرائيليين القدماء . فقد اتهم النبو أشعيا الاسرائيليين الذين كانوا يعبدون الأحجار الملساء المتأكلة بفعل المياه وهى تلك الصخور التى كانت تقع فى الأخاديد الجذباء ، ويصبون عليها الخمر ويقدمون لها النباتات ،

اتهمهم بالوثنية • وعلى كل خان الاسرائيليين لم ينفردوا بعبادة الأحجار ، بل شاركهم في ذلك كثير من الشعوب من بينهم العرب انجاليين •

٣ — العهد على ركام الأحجار : ثم تستمر التوراة في سرد قصة يعقوب ، فتحكي عن زواجه من ابنتى خاله لابان ، لبنة وراحيل • وفى مقابل ذلك مكث يعقوب عند خاله فترة من الزمن يرعى له قطعان ماشيته • وبعد فترة من الزمن ، راجع يعقوب مكسبه المادى عند خاله فلم يجده شيئاً • فقررن يسلب مواشيه ، وأن يهرب مع زوجتيه وأولاده تحت جناح الليل الى بلاده • واحتال بعد ذلك على زوجتيه لاقتناعهما على الهرب فوافقتا • وقبل الرحيل عمدت راحيل الى سرقة آلهة بيت أبيها خوفاً من أن تنتقم تلك الالهة لأبيها من فعلتهم ، ثم أخفت تلك الآلهة تحت محفة جمها وجلست فوقها دون أن تخبر يعقوب بذلك ، ثم رحلت القافلة تحت جناح الليل منتهزا يعقوب فرصة غياب خاله فى سفر من الأسفار • فلما عاد الخال واكتشف ما حدث ، جمع رجاله وأسرع فى أثر القافلة حتى لحق بها ، وعند ذاك انهال على يعقوب تأنيبا وتعنيفا لأنه سرق أمواله وبناته فحسب ولكن لأنه سرق آلهة بيته التى تحرسه • فانكر يعقوب تلك التهمة بشدة وسمح لخاله أن يفتش الركب ، ففعل لابان ذلك ولكنه لم يعثر للآلهة على أثر • وفى تلك اللحظة استرد يعقوب أنفاسه ، ووجد لها فرصة لأن يكيل الكيل لخاله أضعاضا فانهال عليه تعنيفا ، وأخبره أنه لم يأخذ منه الا ما يستحقه نتيجة خدمته له تلك السنين الطويلة • ولما لم يجد لابان جدوى من مناقشته طلب منه الصلح وقلبه مفعم بالأسى لما حدث • وعند ذاك وقف يعقوب ولابان على حجر جمع عليه ركام أحجار صغيرة وأقسما على ألا يحنث أحدهما بعهد الصلح الذى قطعاه على نفسيهما • وبعد ذلك عاد لابان خاسرا الى بلاده ، فى حين استأنف يعقوب رحلته غائرا بنصيب الأسد •

فهذا مثال يبرزه فريزر من بين نصوص والتوراة ليدل به على نظريته في سحر المشاركة • فالوقوف على الحجر وتلاوة القسم عليه ، يكسب القسم صلابة الحجر وقوته • ومما يؤكد هذا ما تتبعه بعض الشعوب من جعل العروس تقف على حجر قبل أن تطأ بيت زوجها قائلاً : « لتطىء بقدميك هذا الحجر ولتكن صلابتك من صلابته وتتغلبى على الأعداء وتطئهم بقدميك » (١) •

٤ — يعقوب عند مخاضة نهر اليبوق : ثم استمر في سيره مع الركب حتى وصل إلى مخاضة نهر اليبوق ، وكان الليل قد أخذ يرخى سدوله عليهم • وعند ذاك أمر يعقوب القافلة أن تسبقه وبقي هو وحيدا عند شاطئ النهر • فلما ساد الكون السكون ولم يعد يسمع من بعيد سوى صوت ثغاء الغنم ، ظهر ليعقوب رجل أخذ يناضل معه يعقوب طوال الليل • ثم قال هذا الرجل ليعقوب : « أطلقني لأنه قد طلع الفجر » • ولكن يعقوب تعلق بتلابيبه وقال له : لا أطلقك ان لم تباركني » فلما سأل الرجل يعقوب عن اسمه وأخبره به أجابه قائلاً : « لا يدعنى اسمك فيما بعد يعقوب ، بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » • ولم يطلق يعقوب سراح هذا الشخص الا بعد أن باركه • ثم سمى هذا المكان الذى تقابل فيه مع هذا الشخص « غيئيل » ، أى وجه الرب • وقد فسر هو هذا الاسم بقوله • « لأننى نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسى » (٢) •

ويعلق فريزر على هذه القصة قائلاً : « والقصة على هذا النحو تبدو غامضة ، ومن المحتمل أن مؤلفى سفر التكوين قد أغفلوا بعض ملامحها الأساسية عندما اشتموا بها رائحة الوثنية • ولكننا اذا ربطنا هذه القصة من ناحية بالملاح الطبيعية للمكان الذى جرت فيه حوادثها ، واذا ربطناها من ناحية أخرى بالأساطير الشبيهة بها ،

(١) الفولكلور في العهد القديم ص ٢٣٧ •

(٢) التكوين ٣٢ : من ٢٦ الى ٣٢ •

فإننا نفترض بادئ بدء أن هذا الغريم الغامض الذى تصارع معه يعقوب هو روح النهر أو شيطانه ، وأن صراع يعقوب معه كان من أجل انتزاع البركة منه » (١) ولعل هذا يفسر سبب تخلف يعقوب عن السير مع القافلة ، وبقائه وحده فى الظلام عند مخاضة النهر . وربما حسب يعقوب أن إله النهر يفرع من وقع أقدام القافلة وأصوات خوضها المياه ، فيدفعه هذا لأن يختفى فى بحيرة عميقة أو بين الأشجار ، حتى إذا ما مر المركب وساد الهدوء النهر فيما عدا صوت التيار الرتيب الهامس ، دفعة الفصول لأن يخرج من مخبئه ليستطلع أحوال النهر ويعرف سبب هذا الهرج والمرج . وعند ذاك يكون يعقوب الماكر فى انتظاره فينقض عليه ويتشبث به حتى يحصل منه على لبركة التى يسعى إليها .

وليس غريبا أن تفسر الحكاية على هذا النحو ، حيث أن الشعوب جميعا كانت أو ما تزال تعتقد فى أن للمياه روحا أو شيطانا أو الها ، وأنه لا بد من استرضاء هذا الكائن قبل عبور الماء حتى يكون عبورهم سالما . ولقد حاول كاتب القصة أن يخفى هذا الأثر الوثيق بأن جعل هذا الكائن هو رب يعقوب . ولكن الحكاية رغم ذلك ما تزال تكشف فى وضوح عن هذا المعتقد البدائى القديم .

٥ - قدح يوسف : وفى ختام هذا الباب الذى يتصل بآباء بنى إسرائيل وشيوخهم ، يأتى فريزر على قصة يوسف . والقصة فى حد ذاتها لا تعنيه بطبيعة الحال ، الا بمقدار ما تتضمنه هى كذلك من معتقدات بدائية . فعندما تقابل يوسف مع اخوته فى مصر بعد غيبته الطويلة عنهم ، أمر يوسف أحد خدامه أن يخفى قدحه فى جوال أخيه بنيامين . وما كاد الأخوة يتخذون طريقهم آغلين الى بلادهم ، حتى أرسل يوسف الخادم فى اثرهم يتهمهم بسرقة قدح يوسف .

(١) الفولكلور العهد القديم ص ٢٥٢ .

ثم غشس أجولتهم واستخرج القدح بطبيعة الحال من جوال بنيامين .
 فأخذهم جميعا وعاد بهم الى يوسف . وعند ذاك قال لهم يوسف :
 « ما هذا الفعل الذى فعلتم ، ألم تعلموا أن رجلا مثلى يتفاعل » (١) .
 ولما كانت كلمة يتفاعل تعنى التكهن كما هو واضح فى الترجمة الانجليزية
 المعتمدة للتوراة ، فقد وقف فريزر عند هذا النص وقفة ليستخلص منه
 اعتقادا من الاعتقادات السائدة ، وهو التنبؤ بالأمر الغيبى عن
 طريق التأمل فى قدح ممتلىء ماء أو به رواسب من القهوة أو الشاي ،
 وهذا الاعتقاد سائد بين الناس حتى اليوم ، وقد أشار فريزر الى
 عديد من الأمثلة التى تؤيد ذلك .

ثانيا : عصر القضاة والملوك :

١ - موسى فى اليم : وينتهى عصر الشيوخ والآباء عند بنى اسرائيل
 بموت يوسف . وقد وصفت مجموعة من السير التى تميزت بألوانها
 الحية وتصويرها الرائع ، رحلة هؤلاء الشيوخ والآباء من شواطئ
 الفرات الى شواطئ نهر النيل . وهنا يترك المؤرخ هذه الحقبة
 من الزمن لفتره يسدل فيها الستار على الفصل الأول من تاريخ
 بنى اسرائيل . وعندما ارتفع الستار مرة أخرى على المشهد نفسه ،
 كانت قد ولت حقبة من الزمن تقدر بأربعمئة سنة نمت فى أثنائها أسرة
 الشيوخ وأصبحت أمة . من هنا بدأ تاريخ هذه الأمة وعلى رأسها
 يقف موسى بشخصيته القوية ، ذلك المشرع والقائد الكبير الذى قاد
 شعبه من مصر وسار به عبر الصحراء المصرية وشرع لهم قوانينهم
 حتى توفى فى نهاية الأمر على مرأى من أرض الميعاد التى لم يقدر لها أن
 يطاها بقدمه .

وقد تشكك فريزر فيما اذا كانت قصة طرح موسى فى الماء
 بعد وضعه فى صندوق من القش ، وعثور ابنة فرعون على هذا الصندوق

(١) التكوين ٤٤ : ١٥ .

واحتضانها الطفل ورعايتها له ، تعتمد على أصل تاريخي أم أنها مجرد صورة أخرى لحكايات من هذا القبيل رويت عن مؤسس الممالك والدول بصفة خاصة ، من أمثال سرجون ملك بابل الذي عاش في القرن الثالث ق . م ، وتراخان ملك جيلجيت التي تقع في قلب جبال الهماليا الثلجية ، وغير ذلك من الشخصيات الأسطورية . وقد افترض فريزر ، مقتفيا بعض آراء الباحثين أن هذه القصة وشبهاتها تستملان على بقايا اعتقاد قديم هو طرح -الطفل في الماء اثر ولادته لاثبات شرعية بنوة الطفل أو عدم شرعيته . فاذا طفا الطفل فانه يكون ابنا شرعيا والا فانه يكون ابن زنا .

٢ - شمشون ودليلة : ومن بين قصة بنى اسرائيل المشهورين ، شمشون الجبار . وقصته مع دليلة معروفة بوصفها تراثا شعبيا روائيا . فقد كانت قوة شمشون تكمن في خصلات شعره التي لم تحلق منذ نعومة أظفاره . ولما لم يكن يعلم بهذا السر سواء ، فقد بذل أعداؤه جهدا ضائعا في سبيل القضاء عليه . ومن ثم فقد لجئوا الى حبيبتة دليلة ورشوها بالمال حتى تكشف لهم عن مكن قوته . واحتالت دليلة على شمشون حتى تتعرف منه على هذا السر ، ولكن شمشون كان يخدعها في كل مرة فيخبرها خطأ بمكن قوته . وفي نهاية الأمر ضعف أمام قوة اغرائها والحاحها وأغشى لها السر ، وأغشته هي بدورها الى أعدائه . وفي الحال قيد شمشون الجبار وقصت خصلات شعره فخارت قواه وانتقم منه أعداؤه شر انتقام .

فهذه القصة تكشف عن اعتقاد شعبي قديم مؤداه أن قوة الانسان أو روحه تكمن في جزء ما من جسمه أو في أى شيء مادي خارج جسمه . فاذا استطاع شخص ما أن يهتدي الى معرفة مكن هذه القوة أو الروح ، وأن يصيبها بضرر ، فان الضرر سرعان ما ينتقل الى الشخص المعنى فيصاب بأذى قد يفضي به الى الموت . وليست قصة شمشون ودليلة كما تروى على هذا النحو ، سوى رواية من

الروايات المتعددة التي تحكى عن هذا الموضوع وتتدرج تحت ما نسميه بالحكايات الخرافية . وقد قدم فريزر للقارىء نماذج وافرة من هذا النوع ليؤيد بها هذا الاعتقاد من ناحية ، ويربط بينها وبين قصة شمشون ودليلة من حيث الشكل والمضمون من ناحية أخرى .

٣ - **حزمة الحياة** : ثم صادف فريزر نصا آخر في قصة داود وأبيجال يشير الى اعتقاد آخر شديد الصلة بهذا الاعتقاد . فقد ظل داود يهيم مع رجاله على وجهه في البرارى « هربا من تعقب شاعول له ، حتى وصل الى أرض يملكها مزارع غنى يدعى نابال . فطلب داود منه أن يزوده بزاد وغيره ، ولكنه أبى فلما تهدده داود أسرع زوجة نابال الجميلة وتدعى أبيجال وقدمت لداود ما طلبه . ثم قالت له من بين عبارات الاطراء به : « وقد قام رجل ليطاردك ويطلب نفسك . ولكن نفس سيدى لتكون محزومة في حزمة الحياة مع الرب الهك . وأما نفس أعدائك فليرم بها كما من وسط كفة المقلاع » ^(١) ومغزى هذه العبارة هو أن أرواح الأحياء يمكن أن ترتبط في حزمة ضامنا لسلامتها . وأما في حالة أرواح الأعداء فان الحزمة تحل وتبعثر أرواحهم منها رتذروها الرياح . ويعلق فريزر على هذه بقوله : « ولا يمكن أن تعتري الشخص العبرى هذه الفكرة ، حتى وإن كانت مجرد صيغة تعبيرية ، ما لم تكن هذه الفكرة ترتبط في ذهنه بعقيدة تتصل بنظرتهم الى الروح » ^(٢) ومن الممكن ، وفقا لهذه العقيدة ، أن تربط أرواح القبيلة أنتى يشار اليها بعمى أو بحجارة في حزمة واحدة ، ثم تودع هذه الحزمة في مكان آمن لا يصيبه سوء . وكلما ولد لهذه القبيلة طفل ، أضافوا عصاة أو حجرا لهذه الحزمة . ومما يؤيد هذا ، كما يقول فريزر : حزم « شارونجا » وهى عبارة

(١) سفر صموئيل الأول ٢٠ : ٢٩ .

(٢) الفولكلور في العهد القديم ص ٢٨٥ .

عن مجموعة من الأحجار المسطحة المسواه ومن العصي التي تحتفظ بها قبيلة أروننا وبعض القبائل الأخرى التي تسكن استراليا الأوسطى ، بعناية كبيرة وسرية تامة فى كهوف وشقوق الصخور • وكل حجر من هذه الأحجار السحرية وكذلك كل عصاة ترتبط ارتباطا وثيقا بروح فرد من أفراد العشيرة حيا كان أم ميتا •

ثم استطرد فريزر من الحديث عن اعتقاد الشعوب فى امكان بقاء الروح فى أى صورة ما بعيدا عن الجسد ، الى الحديث عن اعتقادها فى تحضير الأرواح • وقد حارب أنبياء بنى اسرائيل المتأخرين هؤلاء المشعوذين الذين كانوا يقومون بتحضير الأرواح أو حبسها بقصد ايدائها ، وأودعوهم السجون • وكان من بين هؤلاء الذين حاربوهم الملك شاعول • ومع ذلك فعندما اعترت شاعول غمة بسبب عجزه عن محاربة الفلسطينيين ، أسرع الى ساحرة عين دور التي كانت قد أفلتت من العقاب ، وطلب منها أن تحمى له روح صموئيل النبى الذى كان قد توفى غاضبا عليه • فلما استحضرت له الساحرة روح صموئيل بعد أن طمأنها شاعول على حياتها ، خاطب شبح النبى الملك شاعول قائلا : « لماذا أقلقتنى باصعائك اياى » • فقال شاعول : « قد ضاق بى الأمر جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقتنى ولم يعد يحيينى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تمنى ماذا أصنع ^(١) » • ولكن روح النبى لم تطمئنه ، بل انها على العكس أصرت على غضب الرب عليه •

٤ — جريمة عد السكان : وقد كان العبريون القدماء يعتقدون فى أن القيام بتعداد السكان يجلب عليهم الشر • فقد ورد بين حكايات سفرى صموئيل والأخبار أن يهوه أو ربما الشيطان قد أوحى الى الملك داوود بفكرة مشئومة هى أن يقوم بتعداد قومه • ومهما يكن

(١) سفر صموئيل الاول ٢٨ من ١٢ — ١٥ •

مصدر هذا الوحي على وجه التأكيد : لأن الكتاب الدينيين يختلفون حول هذا الموضوع ، فان نتيجة هذا العمل أو على الأقل عاقبته ، كانت حلول الكارثة ببني اسرائيل . فقد تناقص عددهم اثر ذلك مباشرة نتيجة انتشار وباء الطاعون فيما بينهم . ونظر الناس الى هذه الطارئة بوصفها جزاء طبيعيا لجريمة عددهم . ويفسر هذا الاعتقاد بأن الأرواح الشريرة تظل متربصة بمن يملك عددا من الأغنام والماشية أو عددا من الأبناء ، فاذا علمت عددهم على وجه التحديد ، أصابتهم بأذى . ومن ثم فان من يضطر الى عد شيء يمتلكه ، فانه يراوغ في العد على سبيل خداع الروح الشرير . وهذه الطريقة في العد معروفة تماما لدينا حتى اليوم عندما يقول الناس في العد : الله واحد . مالوش ثاني .. وهكذا .

عبادة شجر البلوط : وقد احتلت شجرة البلوط المكان الأول بين الأشجار المقدسة عند العبريين القدماء . وما تزال هذه الشجرة تنمو بوفرة في فلسطين كما يقول المؤلف . وكثيرا ما يرد ذكر شجرة البلوط بصفة خاصة في التوراة . ومثال ذلك ما ورد في سفر التكوين ١٠ : ٦ : « واجتاز ابرام في الأرض الى مكان شكيم الى بلوطة مورة وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض . » وكذلك ما ورد في هذا السفر ١ : ١٨ « فنقل أبرام خيامه وأتى عند بلوطات ممرا التي في حبون . بنى هناك مذبحا للرب . » وبالمثل ما ورد في الاصحاح ١٨ : ٢٧ من هذا السفر : « وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار فرفع عينيه ونظر واذا ثلاثة رجال واقفين لديه » .

ومازال الفلاحون في فلسطين ، كما يقول فريزر ، ينظرون الى أشجار البلوط التي تنمو بوفرة ، في جهات كثيرة في فلسطين نظرة تقديس أساسه التصورات الخرافية ، اذ أنهم يعتقدون أنها مأوى الجن والأرواح . ومع مرور الزمن ربط الأهالي بين عبادة هذه

الأشجار وعبادة الأولياء ، فكانوا بقيمون قبر الولي عند بلوطة خضراء وهناك يذبحون الضحية اليه ، ويتوسلون اليه أن يحقق لهم أمرا من الأمور . وهذا الربط بين الأشجار وضريح الولي يشير الى الاعتقاد في أن روح الولي تسكن الشجرة . وبهذا يكون هذا الاعتقاد امتدادا للاعتقاد البدائي القديم في أن للشجرة روحا تؤدي لها الطقوس المحددة في مناسبات بعينها .

ومن عادة بعض الشعوب ان لم يكن من عادة شعوب العالم جمعاء ، أنه عندما تتعرض أسرة 'وفاة فرد منها تفرض على الأحياء قيود معينة تحدد من زوايا متعددة حرية الفرد التي يتمتع بها في حياته العادية . وكلما كانت صلة الأحياء بالميت أكثر قربا كانت القيود التي تفرض عليهم أكثر تعنتا . وعلى الرغم من أن أسباب فرض هذه القيود لاتزال مجهولة في الغالب لمن يضطر أن يخضع لها ، الا أن الشواهد العديدة تشير الى أن كثيرا من هذه القيود ، ان لم يكن جميعها ، قد نشأ نتيجة الخوف من شبح الميت والرغبة في الهروب من ترقياته غير المستحبة بصرف نظره عنهم اما عن طريق طرده أو اغرائه أو الى ارغامه على أن يذعن لمصيره ، ويكف عن مضايقة أهله وأصدقائه . وقد كان العبريون القدماء يراعون اتباع كثير من القيود عند حدوث الوفاة كما يتضح هذا من نصوص التوراة . وقد استطاع فريزر أن يضيف الى قائمة القيود التي تفرض سلوكا معينة على المكومين عند العبريين ، قيودا آخر لم يطرأ على ذهن الكتاب الدينيين كما يقول ، اذ لم يشيروا اليه في كتاباتهم ، وان دلت عليه أصول الألفاظ وأكدته العادات المتشابهة التي تتبعها الشعوب البدائية . فكلمة الأرملة باللغة العبرية تعنى الخرساء أو الصامته . وقد دعاه هذا التحليل اللغوي الى انتسائل عن سبب ارتباط كلمة الأرملة بالصمت . وقد أجاب عن هذا التساؤل من خلال فحص تلك العادة البدائية التي تفرض على أقرباء الميت بعض القيود ومن بينها الصمت .

ومن بين القبائل التي تراعى هذه العادة القبائل الأفريقية وقبائل وسط استراليا وشماليها . فالأرملة في هذه القبائل يفرض عليه الصمت لمدة طويلة أو قصيرة ، ولا يسمح لها بالكلام الا بعد تأدية الصمت : ومن بين القبائل التي تراعى هذه العادة القبائل الافريقية شعائر محددة . والسبب في هذا فيما يرى فريزر ، هو الخوف من أن يجذب شبح الزوج الخطير اليها اذا ما سمع صوتها ، فيتعرض لايذاءها ما لم تؤد بعض الشعائر المحددة .

وبهذا ينتهى الجزء الثالث من الكتاب الذى استطاع فيه المؤلف أن يبرز من بين روايات عصر القضاة والملوك ، العديد من التقاليد والمعتقدات العبرية التى تركز فى أصولها على تقاليد ومعتقدات بدائية .

ثالثا : القانون : وبعد ذاك يفرع المؤلف لبحث الجزء الرابع والأخير من الكتاب وعنوانه « القانون » . ويميز النقاد فى مجموعة القوانين المعقدة التى تكون الجزء الأكبر من أسفار موسى الخمسة ثلاث مجموعات أو تكوينات قانونية على الأقل . وهذه المجموعات الثلاث تختلف عن بعضها البعض فى تاريخها وطابعها ، وهى تشتمل وفقا لترتيبها التاريخى على كتاب العهد وقانون سفر التثنية وقانون السفر الكهنوتى . ويعرف أقدم قانون فى أسفار موسى الخمسة بما يسمى بكتاب العهد وهو الذى يتضمن سفر الخروج من الاصحاح العشرين آية ٢٢ الى الاصحاح الثالث والعشرين آية ٣٣ ، وقد سمى هذا القانون بالنشريع الأول وهو يتصل كل الاتصال بسفر الخروج الاصحاح الرابع والثلاثون من آية ١١ الى آية ٢٧ ، وهو ما يسمى فى بعض الأحيان بكتاب العهد الصغير . ويقول فريزر انه من الممكن الادعاء أن هذه القوانين حتى قبل تثنيها كانت تنشر بوصفها نظاما عادية ، ذلك أن القوانين لا تفرض فرضا على المجتمع ، بل لابد أن تكون متلائمة مع عادات الناس ومعتقداتهم الى حد بعيد اذا قدر لها

أن تعيش • أما المجموعة الثانية من القوانين التي يميزها النقاد في أسفار موسى الخمسة ، فهي تلك التي يشتمل عليها سفر التثنية ، وهو السفر الذي دعا الى الإصلاح الدينى عن طريق ازالة الأماكن المقدسة المحلية جميعها ، وتركيز عبادة يهوه الشعائرية في معبد اورشليم وحده •

فاذا كانت القوانين تركز في العادة على أصل قديم من التشريع الشعبى ، فان قارئ التوراة اذن لن يفاجأ اذا ما صادف بين نصوصه عادات وشعائر تركز على تشريعات وثنية قديمة • ومن ثم فان القارئ لن يفاجأ عندما يقرأ وصية من بين الوصايا العشر تنص على عدم طبخ الجدى في لبن أمه ، وهى الوصية التي تقع في سفر الخروج ٢٤ آية ١ • وهنا تبرز مشكلة وهى أن الوصايا التي دونت في هذا الاصحاح لا تتفق كلية مع النص الأكثر ذيوعا للوصايا العشر المدون في الاصحاح العشرين من سفر الخروج وهى تلك الوصايا التي نقرأها مرة أخرى في الاصحاح الخامس من سفر التثنية • ففي الرواية الأولى تختفى القيم الأخلاقية كلية ، اذ أنها تشير جميعا بدون استثناء الى أمور تتعلق بالشعائر المادية التي يطلبها الرب من عباده • ومثال ذلك (تحفظ عيد الفطير سبعة أيام تأكل فطيرا كما أمرتك — لا تذبح على خمير دم دبيحتى ، ولا تبت الى الغد ذبيحة عيد الفصح) • أما عن العلاقة بين الانسان والرب ، وبين الانسان والانسان ، فليس هناك شئ يذكر بهذا الصدد • وانما تختص بهذه العلاقات الانسانية الرواية الثانية للوصايا ، وهى التي تحض الانسان على البعد عما يغضب الرب والناس • وقد يدعو هذا الى افتراض قدم التشريع الأول عن الثانى ، ومع ذلك فمازال على القارئ أن يتساءل عن أهمية وصية تحريم طبخ الجدى بلبن أمه • وأغلب الظن أن هذا التحريم كان موجها ضد بعض الشعائر السحرية أو الوثنية التي رغبها المشرع وسعى في القضاء عليها • وأساس هذه الشعيرة أنها تقوم على سحر المشاركة ، ذلك أن طبخ الجدى في

اللبن يؤدي الى الاضرار بسائر القطيع الذى يتأثر بذلك عن طريق المشاركة . ولما كان اللحم المطهر فى اللبن من الأكلات المحببة عند العبريين » فقد نص المشرع على تجنب هذا الفعل حتى لا تضار الماشية » . وليس هذا التشريع غريبا عن تشريعات القبائل البدائية التى تمنع غلى لبن الأبقار اثر ولادتها العجول حتى لا تصاب الأبقار بضرر ، ذلك أن هناك مشاركة بين الحيوان واللبن الذى يحلب منه .

٢ - ومن بين القوانين التى تشير كذلك الى اعتقاد قديم ، ذلك التشريع الذى نص عليه فى كتاب العهد على النحو التالى : « اذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات ، يجرم الثور ولا يؤكل لحمه ، أما صاحب الثور فيكون بريئا . ولكن اذا كان ثورا نطاحا من قبل ، وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة ، فالثور يجرم وصاحبه أيضا يقتل » (١) .

٣ - وقد كان من عادة القبائل الهجمية تنفيذ قانون الأخذ بالثأر من الحيوان كما هو الحال مع الانسان بل ان هذا كان متبعا فى أوروبا فى العصور الوسطى بصور تدعو الى الضحك ، فقد كانت المحاكمات تنصب من أجل محاكمة الحيوانات التى تؤدى الزرع كالفتران مثلا . وكانت هذه الحيوانات تستدعى للمثول أمام هيئة القضاء ، ويعين لها مدافعون عنها . فإذا لم تحضر الفتران حكم عليها بالنفى أو الحرمان من رحمة الكنيسة الى غير ذلك من الأحكام التى لم تنفذ قط بطبيعة الحال .

٤ - ومن بين تلك التشريعات كذلك ، ذلك التشريع الذى سن

(١) سفر الخروج ١٢ : ١٨ .

تعليق الأجراس في جبة الكاهن عند دخوله المعبد ، والا أصيب بضرر قد يقضى به الى الموت • فقد نص القانون الكهنوتي على أن يصنع رداء الكاهن وفقا للوصف التالى : « وتصنع جبة الرداء كلها من اسمانجونى ، وتكون فتحة رأسها فى وسطها ويكون لفتحتها حاشية حواليتها صنعة الحائك كفتحة الدرع يكون لها لا تشق ، وتصنع على أذيلها رمانات من اسمانجونى وأرجوان وقرمز على أذيلها حواليتها وجلجل من ذهب بينها حواليتها جلجل ذهب ورمانة على أذيل الجبة حواليتها • فتكون على هرون للخدمة ليسمع صوتها عند دخوله الى القدس أمام الرب وعند خروجه لثلا يموت » (١) •

فلماذا كان يتحتم على الكاهن أن يرتدى الأجراس المجلجلة التى يعلقها بين تطريز الثوب حتى يسمع صوت رنينها عند دخوله المعبد ، والا مات ؟ عندما قارن فريزر هذا الاعتقاد بالاعتقاد السائد بين الشعوب البدائية والحضارية فى أن صليل الأجراس فى المناسبات التى تكون فيها الأرواح مهددة بمطاردة الأئشباح الشريرة لها ، يعمل على ابعاد هذه الأئشباح ، رأى أن تفسير هذا التشريع الذى يحتم على الكاهن ارتداء الأجراس ، لا يمكن أن يفسر الا من خلال هذا المعتقد البدائى ، وهو أن الأرواح الشريرة تتربص بالكهنة عند دخولهم المعبد فتتعرض لابذائهم ما لم يعملوا على طردها بعيدا عنهم • وليست عادة دق النواقيس فى الكنائس سوى امتداد لهذا المعتقد البدائى القديم وان نسى السبب الأصلى فى استخدامها •

ولعلنا ندرك الآن بعد تلك الجولة فى ثنايا كتاب « الفولكلور فى العهد القديم » أن فريزر قد قدم لنا بحق « أسطورة أنثروبولوجية رائعة » للشعب العبرى • وقد كان فى تقسيمه كتابه الى هذه الأبواب

(١) سفر الخروج ١٨ من ٣٢ الى ٣٥ •

الأربعة موافقا كل التوفيق ، حيث أنه تمكن بأسلوبه الشائق ومقدرته الفائقة على المقارنات من أن يبرز صنوفا من المعتقدات والتصورات العبرية في كل مرحلة من مراحل تاريخهم الديني الطويل . وإذا كان فريزر قد نجح بحق في أرجاع تلك المعتقدات الى أصولها البدائية ، فهذا يعني أنه نجح في تحقيق هدفه الذي عبر عنه في مقدمة كتابه عندما قال : « لقد دفعني الهدف من دراستي هذه الى أن أنعم النظر بصفة أساسية في الجانب الأدنى من حياة العبريين القدماء كما تتمثل في العهد القديم ، وأن أتتبع آثار الهمجية والخرافة ، تلك الآثار التي تنتشر على صفحاته » .

وفي خاتمة هذه الدراسة يمكننا أن نتساءل عما اذا كان فريزر قد تمكن من تطبيق نظريته في السحر والدين من حيث أن السحر يعيش بين الشعوب في مرحلة حضارية أدنى من الدين ، حتى اذا ما انتشر الدين واستقر في النفوس انقضت المرحلة السحرية الى غير رجعة . فهل تنتمي تلك المعتقدات والتصورات والعادات التي عرضناها في هذا البحث الى السحر أم الى الدين . أحسب لو أن فريزر سأل نفسه هذا السؤال لأدرك التناقض بين نظريته وأبحاثه ، وهو الأمر الذي أخذه الباحثون عليه وعدوه من نقاط الضعف في أبحاثه الأنثروبولوجية . فلو أن مرحلة الدين تعد منفصلة تماما عن مرحلة السحر ، لما برزت تلك الطقوس السحرية بين سطور التوراة ، كتاب اليهود المقدس . ولعله يبدو الآن تفوق نظرية مالمينوفسكي في العلم والسحر والدين في مجال الدراسات الأنثروبولوجية على نظرية فريزر . ذلك أننا لو افترضنا وفقا لمالمينوفسكي أن السحر والدين يعيشان جنبا الى جنب ، وأن كلا منهما يلعب دورا مستقلا في حياة الشعوب ، لاستطعنا أن نميز بين ما ينتمي الى السحر وما ينتمي الى الدين في التوراة . فعباداة الأماكن المقدسة وتقديم التضحيات للرب ينتميان في وضوح الى الجانب الديني الذي يسعى الانسان بدافعه

الى استرضاء الاله لحماية كيانه ووجوده في حياة • وأما ارتداء يعقوب لجلد النعجة ، ولجوء شاعول الى ساحرة عين دور وغرض الصمت على الأرملة أثر وفاة زوجها ، وتقديم الضحية لآله النهر ، الى غير ذلك من الطقوس والشعائر التي عرضها الكتاب ، فهي تنتمي جميعا الى الجانب السحري الذي يقوم بوظيفة محاربة القوى الشريرة حتى يكون المصير الخير حليف الانسان • واذا كنا نلاحظ أن الطقوس السحرية تغلب بحق الطقوس الدينية في التوراة ، فإن هذا ان دل على شيء فانما يدل على أن اليهودي لم يستطع نتيجة ارتباطه الشديد بالمادة ، أن يسمو بدينه السماوي الى طبيعته الروحانية التأملية ، ومن ثم فقد ظلت طقوس السحر البدائية عالقة بنفسه وانتشرت بدورها بقصد أو غير قصد بين سطور التوراة •

يونيو ١٩٨١

د. نبيلة ابراهيم

أستاذة الادب الشعبى

كلية الآداب — جامعة القاهرة